الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١١١ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 111. | Lundi-19-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

ســـعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كان رحمه الله كالبحر! لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسـك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول! لم يكن إنسـاناً كسائر النـاس عظمتـه موضع الشذوذ فى بشريته، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه، وقوته عَرَض منتقل فى ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلا فى طبعه، والعبقرية فطرة فى خَلْقِه، والقوة جوهراً فى إرادته. وإذا كان النبوغ قوة فى

مَلَكَةٍ على حساب مَلَكات ، وارتفاعا فى جهة بانخفاض جهات ، فان نبوغ سعد باشا كان نظاماً عَـدْلا فى نوعه : ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار واحـد ، و بهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز . فهو فى صرامة المنطق مثله فى لطافة الشعر ، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور ، وفى بلاغة اللسان مثـله فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية !

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصـة ، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربيـة الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يَشُبْ دماءهما عنصر دخيل ، أزهريين لم يشلّ تفكيرهما تقليد عاجز ؛ ثم مضيا على إلهام الجنس، ورسم التاريخ ، وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى اصلاح الدين ، و يدعو الآخر إلى صلاح الدنيا ، برجولة الخلق ، وفحولة التفكير ، و بطولة التضحية ؛ حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجـدان وثورة الحميّة .

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية ، من نوع معجزة الرسول فى رسالته الإلهية : رجولة قاهرة وفصاحة ساحرة وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة ! !

***

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد فى كلمة فهى (الدفاع عن الحق) ؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة ؛ فكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة ، وسلطان الهوى ، وعدوان الرذيلة . عُيِّن بعـد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الامام ، فكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، و ينتقـد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ؛ ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى ، فنزل الحق من عدله وعقـله فى حمى أمين ؛ ثم أصغى لصرخة الحق فى الغضبة العرابية ففصل من وظيفته ، فزاول المحاماة ، وهى يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق ؛ فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم ، تساعد القانون وتؤيد الحق

وكان سعد أفندى زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذى أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامى فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض فى محكمة الاستئناف ، و يومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأور بيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحكم الموفق . ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القـدَر ؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية ؛ فطاطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية فى وطنها فجعلها لغة الثقافة ، ووضع الأقدار فى مواضعها فرفع بذلك من قدْر الكفاية

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها فى « الجمعية التشريعية » ، فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه المُلزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ، ودهشة النواب ، ومُتجه الأفئـدة ؛ وكان منهاجه فيها قوله المأثور :

« الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة »

ثم أُعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) ، فدوى فى سمعه صوت الحق الصريع ، وعصفت فى رأسه نخوة الشعب المستذَل ، فنهض للغاصب المزهوّ نهضته المعروفة ، يخيّس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامى تاريخ مصر الجديد

***

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق ، فى أمة سَفِهَتْه فى نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركّبه على الصورة التى أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة !

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

أيها البـــحر !

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا احتدمَ الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ للزمن فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائى »

وتنتقِلُ إلى أيامِك أرواحُ الحدائق ، فتنبتُ فى الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيةِ ، كأنها الثمرُ الحُلوُ الناضجُ على شجره

ويُوحى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر ، إلا أنه أرقُّ وألطف

ويرى الشعراءُ فى ساحلك مثلما يرون فى أرض الربيع ، أنوثة ظاهرة ، غير أنها تلدُ المعانىَ لا النبات

ويُحِسُّ العشاقُ عندك ما يُحسُّونه فى الربيع : أن الهواءَ يتأوَّه . . . .

* * *

فى الربيع ، يتحرك فى الدم البشرىِّ سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائى » يتحرك فى الدم سرُّ هذه السُّحُب

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب

وبالربيعَيْن الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعالم السحرىِّ العجيب : عالَمِ الجمالِ الأرضىِّ الذى تدخِله الروحُ الانسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُّ فى شعاع ابتسامةٍ ومعناها

* * *

فى « الربيع المائى » ، يجلسُ المرءُ وكأنه جالسٌ فى سحابةٍ لا فى الأرض

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب

ويَخِفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعانى الأرضية انتزعتْ من المادة . وهنا يدركُ الحقيقة ، أن السرور إن هو إلا تنبُّهُ معانى الطبيعة فى القلب

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك فى « دنيا الرزق »

تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتغرُب على الأعمال التى يعملُ الجسمُ فيها

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ — وا أسفاه — يكونون فى ساعاتهم المظلمة . . .

الشمسُ هنا جديدة ، تُثبتُ أن الجديدَ فى الطبيعة هو الجديدُ فى كيفية شعور النفس به

* * *

والقمرُ زاهٍ رفَّافٌ من الحسْن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر

أو كأنه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طلع فى أوائل الليل ؛ فحَصرَته السماءُ فى مكانه ليستمرَّ الليل

فجرٌ لا يوقظ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يوقظُ الأرواح لأحلامها

ويُلقى من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستبْهمة كأنها أحلامٌ معلَّقة

للقمر هنا طريقةٌ فى إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبِّله أولَ مرة

* * *

و « للربيع المائى » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل

أما الطيور فنساءٌ يتضاحكْنَ ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون

نساءٌ إذا انغمَسْن فى البحر ، خيِّلَ إلىَّ أن الأمواج تتشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن . . . .

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةَ قد جلست على الرمل جِلسَةَ حوَّاءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : ياإلـهي . قد انتقل

---

* كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر

معنى الغرق الى الشاطئ . . . إن الغريق من غرق فى موجة الرمل هذه . . . .

***

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا

وخيِّل الىّ أنهم أقلقوا البحر كما يقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فَوَكَزَ البحرَ برِجْله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بنى آدم ! !

أعلى الله أن يَعْبَأ بالمغرور منكم إذا كَفَر به ؟ أعلىّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلَني برجله . . . ؟

***

أيها البحر . قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الانسان المغرور

وتجيش بالناس وبالسفُن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً ترمى به

والاختراعُ الانسانىُّ مهما عَظُم لا يُغْني الانسانَ فيك عن إيمانه

وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمَة والهوْل ، رداً على عَظمة الانسان وهوله فى الربع الباقى ؛ ما أعظمَ الانسانَ وأصغره !

***

ينزلُ الناسُ فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر

ويركبون ظهركَ فى السفُن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضيـة ومن أحكامها الباطلة

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها فى الأرض

يا سحر الخوف . أنت أنت فى البحر كما أنت أنت فى جهنم

***

وإذا ركبك المُلحِدُ أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدَرْتَ عليـه وثُرت به ، وأريتَـهُ رأىَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحـداها على الأخرى فتُقْفَلان عليـه ، تركتَـه يتَطَـأطَـأ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدَحْرِجَهُ وتدحرجُها

وأطَرْتَ كل ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل

وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَل العقل ، ولـكنه عملُ الغَفلة والأمن وطولِ السلامة

***

ألا ما أشبَـه الانسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر !

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها

ولن تستطيع هـذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولـكن قانونها هى الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها . ونجاتُها فى قانونها

فلا يعتبنَّ الانسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولـكن فليجتهد أن يحكم نفسه

كتبت فى شاطئ سيدى بشر
(اسكندرية)

مصطفى صادق الرافعى

مصر وقت الفتح الفاطمي

والعوامل التي مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر وقت الفتح الفاطمي ، فريسة هينة للفاتح ؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح الفاطمي بنصف قرن فقط . وقد ثابت للفاطميين منذ شادوا ملكهم في إفريقية ، نية في غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض نواحيها ، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر ؛ ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة ، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون في المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتي على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار في المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك في عهد ثاني خلفائهم القائم بأمر الله [1] . على أن الخلافة العباسية التي استطاعت في فورة من القوة في عهد المكتفي بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلي في مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسي والديني فيها ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزري ، وذكا الرومي ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد ، وكانت هذه النزعة الاستقلالية ، ذاتها عاملا في ضعف سلطان الخلافة في مصر ، وفي المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائي ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملاً في حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والمتطلعين إلى امتلاكها . وكان

(١) راجع المقريزي — اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ — ٤٩ — والخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣

جل اعتمادهم في ذلك على جند مصر ذاته ، ولكن الشعب المصري لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ، فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم باطماع أولئك الزعماء وجشعهم في استخلاص أرزاقه [1] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم في تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفاً على ضعفها ، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هي الدولة الفاطمية تسير مسرعة الى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التي شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ في هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التي تحمل عناصر الهرم والفناء الى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنعماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التي اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها في المهد ، إلا لتذكي فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت في نفس الوقت فداحة الخطر الذي يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم في المغرب الأقصى حتى المحيط ، فانهم لم يطمئنوا الى البقاء في تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا باقامة ملكهم في افريقية الى ذروة الأماني والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائي درة خضراء ؛ وكانت مصر في نظرهم هي ميدان المعركة الحاسمة التي يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية — خصيمتهم السياسية والمذهبية — وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا ، وكما سنفصل بعد ؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم في

(١) راجع الخطط — ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧

افريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضاً ؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الأخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ ذلك لأن ابن كيغلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ؛ ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الأخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الاخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بانشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الأخشيدية ؛ واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعيـة ، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة ٣٣٢ هـ) وسطعت الدولة الأخشيدية بمصر مدى حين ، وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بني العباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكنّ قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى همة منشئها الأخشـيد وإلى قوة خلاله ؛ فلما توفى الأخشيد (سنة ٣٣٤) ، وخلفه ولده انوجور على مصر والشام ثم أخوه على بن الاخشيد (سـنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الامور فى عهدها إلى كافور الأخشيدى خادم أبيهما ، أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الاخشيد ، انتزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ؛ وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والاجتماعية الهدامة التى كانت تقضم أسس الدولة الأخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه فى الامارة صبى حفيد للأخشيد هو احمد بن على بن الأخشيد ، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ ولكن الامور كانت قد ساءت يومئـذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيدية ولاح لها شبح الفناء جاثماً فى الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة ، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ؛ وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بنى الأخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزماً أمام الاخشيد ليسحق الدولة الأخشـيدية[1] . ولما توفى كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت اعطية الجند ، كتب بعض زعمائه إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه إلى فتح مصر[2] ؛ واشترك فى هـذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة فى عهد كافور ، هو يعقوب بن كلس ؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه ؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المعز إلى فتـح مصر ، ووصف له خصبها وغناها ، وضعفها واضطراب أحوالها[3] ؛ وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الأخشيد ، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية . والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها وفى نظمها الاجتماعية وأحوالها المعنوية ، وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خابياً ، وكان الشعب مطيـة المتغلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق

(١) الخطط — ج ٢ ص ١٢٧
(٢) ابن خلكان فى ترجمة القائد جوهر — ج ١ ص ١٤٨
(٣) ابن خلكان — ج ٢ ص ٤٤٠

أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاربه ، وكانت العاطفة القومية تتبرم بهـذه السيادة الأجنبية التى تمثلها تصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية ، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨ هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف (١) وكان ذلك بلا ريب عاملاً فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها فى النضال والمقاومة . أضف الى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئـذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت الينا فى ذلك رواية إذا صحت فانها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية للبيع فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وأنها اشترت الصبية لتستمتع بهـا لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا اليهم (٢)

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسـية ؛ وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الأخشيدية التى سطعت فى عهد مؤسسها

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٣٤

(٢) المقريزى — الخطط ج ٢ ص ١٦٦ — واتعاظ الحنفاء ص ٦٤

لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت فى قفار المغرب ، فى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ؛ وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، إلى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . وإليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم إليه من باب خاص ، فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وانها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى اخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل ، أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ؛ وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ؛ وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ؛ وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا ياشـيوخ فى خلواتـكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لـكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ؛ انهضوا رحمكم الله ونصركم (١)

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) المقريزى الخطط . ج ٢ ص ١٦٤ واتعاظ الحنفاء ص ٦٠ و ٦١

حول الأوزاعى «ثالثا»

للأستاذ أمين الخولى

. . . ولا مفر لى من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها ؛ ثم سلام على الأخ السيد السنغافورى ، وانتصاح خير انتصاح بنصيحته فى أن أعدل منطقى ؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء ؛ ولعله يعمل معى على هذا الاصلاح الرشيد الذى أبادر بشكره عليه ، فيدعنى أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء ، وله أن يبعث إلى هذا الاصلاح بأى طريق يؤثره . وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الاصلاح اهتمام فليجعله — إن كان ذلك — بيننا خاصاً

ياسيدى ؛ فسرت فى حديث عن الأوزاعى التأثر الرومانى ، بالتأثر بالثقافة والبيئة الذى لا بد من تقديره ؛ فكتبت تقول لى إن القانون الرومانى الحديث مأخوذ من الفقه الاسلامى ؛ وإذ ذاك قلت لك هذا رأى قديم نشر فى مصر ولا يؤثر فى قولى ؛ فقلت لى إنى أكتب ذلك للقراء ، لا لك وحدك . والذى نشر فى الكتب المطبوعة منذ ربع قرن ؟ أليس هو للقراء ؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع ما فى الكتب ؟ أم أين منطقى . . . وأقول لك لا يؤثر على قولى ولا يتصل به من قرب ، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيى مدعماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرى ؛ ولكن لم أكن مناظرك فى هذا ، ولا عرضت له ؛ وعنونت كلمتى الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة ، حول الأوزاعى ؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه ؛ وستعرف آخر الأمر لماذا فعلت ذلك ؛ فالآن أين منطقى . . وأقول لك وقتى — وقتى أنا — وعملى وواجبى ومصالحى ، فتقول لى لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ، فبربك أين منطقى ؟ . . . وأقول لك حين تسوى بين الأخذ والتأثر انهما متغايران والثانى منهما قد يكون حاداً قوياً ، وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة ، فلا يعجبك ذلك . وتحدثنى عن سد الذرائع ، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية ، ولما نفرغ من المناظرة فى تاريخ القانون ، التى تجبرنى عليها ، حين تزعم أن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، وعلم الله أنى أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذى تحب أن تتكلم فيه ، فتجبرنى على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك ، فأين منطقى . . . ؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الاسلام تمام الانطباق ، فتقول لى إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لى بينهما ، وفى منطقى — المريض — أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق ، فما التفريق بين الناقض والخارق ؛ وأين منطقى . . .

وتقول إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة وفى زمن واحد . فأقول لك نمت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلاف فيها اختلاف هائل ؛ فتقول لى إنما أريد الأصول والحدود والفرائض ؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها ، والتطبيق عليها ؛ وأين منطقى . . .

وأقول لك إن بعد المرامى القرآنية سبب للاختلاف ، فتحتج فى الرد على هذا بأمر على لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف ، فأين منطقى . . .

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف ، فتقول السبب الأكبر هو كذا ، وهذا عندى هو السبب الأكبر ، وهل وجود السبب الأكبر — عندك — ينفى السبب ، أو الأسباب الكبيرة ، والصغيرة و و . . . ، وأين منطقى

وأقول لك اختلف الأدباء فى فهم معنى الكذب فى القرآن واستعماله فيه ، فتقول لى فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية ، وهل ليست مؤدياتها هذه هى معانيها وما يفهم منها ، وهل ليس هذا هو ما يحدد ويقدر حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم ؛ وإلا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التى تختلف عند السيد . . . وأين منطقى . . . ؟ إن منطقى لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع يفهمها المسلم اليوم بمثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة

دون خلاف ، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال ، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها ، وهذا معنى قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله ، لا بغير ذلك من المعانى ؛ ثم منطق هذا لم يفهم الكلام فى التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول قبل مائتى سنة ، لأنا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية ، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مراميها أو وقوع المشترك فيها ، لا لبعد المرمى الدقيق الاعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فلا أفهم ذلك ، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب ، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهى أمر احصائى ؟ ثم كيف غلبت وهى تابعة لأصل هو الكتاب لا تجىء بما ليس فيه ، فكل ما فيها فيه ، فما هذه الأغلبية ، وأين منطق . . . أصلح الله شأنى وأصلح شأنك إن قبلت منى هذه الدعوة فى غير غضب ، وإلا فدع نصيبك منها لى كله

وأقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ؛ فتقول لى قد مضى على الرومان قرن وأكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان ؛ ورحم الله منطق مع هذا التراث ، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً ، وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والغرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ؛ والغارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطقى أنا . . .

وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى إكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التى لا تتبدل

وقلت : « الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا » فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الاسلام لا يصح أن يجرى فيه الخلاف إذن ، فعجبت من ذلك ، وسألتنى بأى منطق استنتجت من قولك ذلك ، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الاصلاح وقع هذا الكلام فى عبارتك ففهمته ، ثم كنت ذكرت ياسيدى فى هذا المجال أول ما ذكرت : الضلال والزيغ ومحاربة الاسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك ؛ وأما الآن فأقول لك : إن هذا الكلام الذى كنت ذكرته عن عجبك من وزارة الأوقاف الاسلامية كيف تقول كذا وكذا فى الفقه ، ومنى كيف أقرر هذه الضلالة وأفسرها ؛ هذا الكلام كله هو الذى يجعلنى أفهم — ولو لم تقل — أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره ؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن ، وواجب النصح ، ولو غضب أو قذف : أولى لى — أنا أولاً — ثم لحضرتك ثانياً ، أن تدع المناقشة فى تاريخ القانون الرومانى لدراسة يحق لها أن تتكلم فى هذا أو ترتئى فيه ؛ لا لمقال ينشر فى سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره فى مصر ؛ وهو كل بضاعتنا وما تدور عليه مناقشتنا . والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً ، وندرس تاريخه درساً عميقاً ؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم ، ثم نلتقى بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة ، ونتعاون على الوصول إليها ، لا لنكفر كل قائل ، ونتهم كل متكلم ، ونتحدث عن الرومان والاسلام واليونان والعرب والفرنجة والمستشرقين والمبشرين فى صفحة وبقطرة مداد واحدة . تلك نصيحتى إليك يا سيدى أكررها جزاء لك على خالص نصحك لى بأن أغير منطقى ؛ وإنى لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطقى أنا ، لكنما المنطق وحدة عقلية إنسانية لا بد لى فيها ولا بد لك بتغييرها . فنبهنى أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الانسانية ، ولا نخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فننعزل عن الدنيا ؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع . وهذا الذى بينت هو الذى منعنى من الخوض معك فى مناقشة العلاقة بين القانونين ـ الرومانى والاسلامى ـ وهو الذى تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت

وإذا كنت — وحق المنطق وكرامة العقل — لم أغالطك مطلقاً ، فانى وحرمة الاخوة الاسلامية لم يدر بخلدى أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك ، والحق أجل منى ومنك . والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولى

الى الشيخ اللغوى ... و (فلان)

الوظيفة والموظفون

للأستاذ على الطنطاوى

اعلم -- أعزّك الله -- أن الوظيفة ليست غُـلاًّ فى العنق ، ولا قيداً فى الرجل ، وليست مقايَضَـة أو مُبادَدَة ، آخذ فيها الوظيفة(١) باليمين ، لأعطى الوجدان بالشمال ؛ ولو أنها كانت كذلك ، لعزفت عنها واجتويتها ، ونفضت يدى منها ، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبى كرّة أخرى ، أو أقضى وأسرتى خَمْصاً ، على أن آكل خبزى مغموساً بدم الضمير . . . وعلى أن أكفر بالفضـيلة ، وأومن بالمصلحة ، فأزن كلّ شىء فى الدنيا بميزان صنجاته الدنانير ، وأبصر كلّ مافى الـكون من ثقب القرش ، وأفـكر إذ أفـكر بعقلى الذى فى كيس نقودى ، لا بعقلى الذى فى رأسى ، فأختزل المنطق كله فى قضـية واحدة ، هى الأولى والأخرى ، وهى الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهى الـكتاب المعجز الذى لا يُفرّط فيه من شىء ، ولا يعجزه شىء ، فيكون المنطق كله هذه القضية : تحصيل المال واجب ، وفى هذا الأمر تحصيل مال ، فهذا الأمر واجب . . وضَعْ مكان (هـذا الأمر) ما تشاء من أفعال اللؤم والخسّة ، والـكذب والنّذُولة ، والضّعة والفُسُولة ، تنتظم القضـية وتستقيم ، وتصح وتطرد . . . . ولا يبقى فى الدنيا ردىء ولا فاسد ، ولا منكر ، ما دام معه المال !

لا -- يا سيدى -- لست أسلك هذه الطريق التى لا أزال أحذّر منها من لم يسلـكها ، وأصرف عنها سالـكيها ، وإن كان السالـكوها جم الـكثرة من موظفينا وعلمائنا ، ومن كل ذى وظيفة ، أو صاحب صلة بالحـكومة ، حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتى الأمر يعـترف أنه مؤذٍ للأمة ، مُنافٍ للفضيلة ، مناقضٌ للشرف ، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه ، ومعيشته تستلزمه ، وانه رجل (عاوز يعيش . .) ولا يعيش من لا يساير وينافق ، ويَذِلّ ويَتَزَلَّف ، لا يدرى الجاهل أن المعيشـة على الصَّعْتر مع الشرف ، خير من حياة النعيم والترف ، من غير فضيلة ولا شرف !

***

ومن أنبـائك -- أعزّك الله -- أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه ، ولا يرى إلاّ بعين أمرائه ، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا ، ولا يقبل ما ردّوا ، ولا يوقر ما سفّهوا ، ولا يرى ما استقبحوا حسناً ، ولا ما كتموا ظاهراً ، ولا ما صغّروا كبيراً ، ولا ما عظموا حقيراً ؟ أولوكان رؤساؤه مخطئين ، أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟

ومن ذا حظر عليـه ما أبيح للناس ، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير ، وحرية الرأى ، وحرية القول ، ولماذا يشتهى من الطعام ما يعافه رئيسه ، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله ، ولا يكون عليه فى ذلك من حرج ، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه ، ومن المذاهب غير مذهبه ؟ ولماذا لا ينشر هذ الرأى ، ويؤيد هذا المذهب ، ما دام لا يأتى محرماً فى الشرع ، ولا ممنوعاً فى القانون ؟ ..

والوظيفة -- يا سيدى -- عَقْدٌ بين الدولة والموظف(١) ، على أن يعمل عملاً بعينه ، على جُعْلٍ بذاته ، أفهل يعمل الأجير فى الدُّكان ، والعامل فى المصنع ، والنّادل فى الفندق ، والخادم فى البيت ، وكلُّ مأجور من الناس فى عمل جلّ أو قلّ ، علا أو سفل ، فاذا أكمل عمـله وجوّده ، استحق الأجر ، وانطلق حراً فى وقته ، يقضيه على ما أحب ، حراً فى ماله ينفقه على ما شاء ، حراً فى رأيه ينحو به النحو الذى أراد ، ويسوقه المساق الذى اختار . . . ثم لا يكون الموظف حراً أبداً ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟

وماذا علىّ وأنا مدرس إذا أنا أعْدَدْتُ درسى وألقيتـه ، وقرأت وظائف تلاميذى وصحّحتها ، وفعلت كل ما يوجب علىّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل ، أن أؤلّف وأكتب ، وأنقد الأخلاق والـكتب والعادات ، وأساهم فى الجهاد الاصلاحى ، وأحمل القسط الذى أطيقه من أثقال الأمة ، ومن ذا يحمله إذا لم أحمـله أنا وأمثالى من الموظفين والمتعلمين ؟ وكيف تتقدم الأمة وتسير فى طريقها إلى غايتها ، إذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها ؟

أفهل يريد سيدى -- أعزّه الله -- أن أمحو ملـكة الـكتابة

---

(١) الوظيفة هى الراتب ، والتوظيف تعيين الوظيفة ، وإذا نحن أطلقنا الوظيفة على العمل نفسه فانما نتبع فى ذلك العرف السائد

(١) لست أعنى العقد الاجتماعى نظرية روسو المعروفة ، فذاك شىء قد سقط اليوم من قائمة العلوم ودخل فى سجل التاريخ

من رأسى ، وأطمس نور البصيرة من قلبي ، وأسدل على عيني حجاباً حتى لا أرى فأسرّ فأشكر ، أو أبتئس فأنقد ، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح علىّ الكتاب طريقاً إلى مقالة ، وأتعزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث ، أو قصة فأدوّن هذه القصة ، وأدل على مكان العبرة منها ، وموطن العظة فيها ؟ أفهل يريد سيدى أن أذهب إلى غار فى الجبل فأحبس نفسى فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته ؟

أوهل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه ، مسخراً لأغراضهم ساعياً فى مصالحهم ، ولو كانت الطريق إلى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجّة لا يسلكها رجل يعرف ماهى الفضيلة ، ويدرى ماهو الشرف ؟

وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الأمة ، فلا يشعر بشعورها ، ولا يألم لألمها ، ولا يحس أنه منها ، ولا يشاركها فى شيء من عواطفها ، فى حين أن المفروض فى الموظف أنه من أرقى أبناء الأمة فكراً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأشدّهم شعوراً « بالواجب العام » ؟

أوهل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الأمة ، ثم لينامو آمنين إذا هى خافت ، ويضحكوا فرحين إذا هى تألمت ، وينعموا فارهين إذا هى شقيت ، ويأكلوا مسرفين إذا هى جاعت ؟

كلا ! كلا ياسيدى ، فالموظف من الأمة وإلى الأمة ، وليس فى البلد شعب وموظفون ، ولكنّ فيه شعباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويصدر عن مبدإ واحد ويسعى إلى غاية واحدة ، ولآن تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها ، أولى من أن أنزل أنا على رأيك ، وأخضع لارادتك ، فيما يؤذى الحقيقة وينافيها

كلا ! لقد انقضى ذلك العهد الذى كان الموظف فيه مسئولاً أمام رئيسه ، وأصبحنا اليوم وكلنا مسئولون أمام الأمة والتاريخ ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به علىّ ، ولكن راتبك أنت منحة من الأمة — التى أنا من أبنائها تمن هى بى — عليك !

* * *

وبعد ؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر ، وأرباب الأقلام ، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين ، وحق الأمة عليهم ، وأمل الأمة فيهم ؟ أوليس يجب عليهم معالجة هذه النواحى من أخلاقنا ، وبسط الكلام فيها ، وتحذير السالمين منها ، ومداواة المصابين بها ؟ . . .

على الطنطاوى

الى الأستاذ محمد كرد على

أغراض الاستشراق

للأستاذ محمد روحى فيصل

العجالة التى أسوقها اليوم إنما كتبت منذ عهد بعيد ، وهى كما ترى أو كما سترى تحكى أغراض المستشرقين الدينية والسياسية ، وتبين البواعث النفسية التى قام عليها تاريخ الاستشراق ، وتمدد الوان التخاذل العلمى والوجدانى التى خضعت لها هذه الطائفة منذ نشأتها الأولى ! ولقد كنت أريدها دراسة قوية مستفيضة موفقة تشرح ما تتوغر به صدور القوم من الحقد والموجدة ، وتفضح ما ألم بالقلوب من النزوات البشمة والاهواء المريضة ؛ وأذكر أنى ما قرأت كلمة فى هذا الصدد لكاتب من الكتاب الا اعتادنى الحنين الى تكملة ما شرعت فيه قديماً ، واستئناف تبيان ما عميت أو تعامت عنه البصائر والأفهام

كان يعوقنى عن ذلك أمران ، هما الدعامة التى ترتكز عليها أسباب الكتابة والنشر ، أولها فقدان الصحيفة العربية الاسلامية الشرقية التى ترحب ببحوث كهذه التى نعتزم إذاعتها فى الناس ، والتى تشجع الكاتب الباحث على المضى فيما أخذ به نفسه من الدراسة الحرة الخالصة ؛ وثانيهما غموض الحجة وهلهلة المنطق والتواء التاريخ للظهور على المستشرقين والتغلب على مزاعمهم ودحض آرائهم واثبات خطئهم ؛ فليس يكفى عندنا أن نتهمهم فى ابهام ، ونبغضهم لغير سبب ، ثم نحمل عليهم ونرشقهم بقارص الكلام وعنيف السباب ؛ إذن لتجنينا عليهم فظلمناهم ظلماً كبيراً ، ولكانت دعوانا التى نتقدم بها عاثرة خاسرة !!

أما الصحيفة العربية الاسلامية فقد عثرنا عليها واهتدينا اليها ، و « الرسالة » السمحة لن تضيق أبداً بما نعتقد أنه الحق ، أو تتبرم بنفى ما غشى العرب والاسلام من ضعة الخطأ والعدوان ، وهى المجلة الراقية التى تعتز بالكرامة وتعتصم بالنبل ثم تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة ؛ وأما الحجة والمنطق والتاريخ فقد توفرت لدينا وأسلست عناصرها لنا

واتضحت فى ذهننا ، وإنا لنرجو أن نؤثر فى الأسلوب والعرض جانب الحق والانصاف والهدوء على جانب التحامل والملامة والغضب

وأحب قبل كل شىء أن أقول لعلامة الشام الأكبر ومؤرخها البارع الأستاذ محمد كرد على إنه إذا قدر أن ينشر المستشرق برتزل كتابى المقنع والنقط نشراً حسناً ويضع لهما فهرساً خاصاً يسهل على المطالع أمر المراجعة والتنقيب ، فما ينبغى أن توجه الشكر والثناء إلا للناشر الفاضل وحده ، أما أن ترسل الكلام إرسالاً وتمتدح المستشرقين كافة فهذا ما ينكره العلم ولا يرضاه الحق ، فتقول : « هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون ! وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر وأساتذة العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب . إننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والأسبانيين وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أمريكا بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا ، أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا » (١)

لقد تعودنا أن نكيل المديح للمستشرقين كيلاً ، وأن ننعت جهودهم بأنها بذلت لخدمة لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، وأن ما نشروه من البحوث والمخطوطات إنما كان لذات العلم خالصاً ، ورأينا نرجع اليهم كلما اختلفنا فى رأى أو حزّ بنا أمر لنستوحى منهم الحكمة وفصل الخطاب . هم يتمتعون منا بثقة لا حد لها ، ولكن هل عرفنا أغراضهم وغاياتهم ؟ هل تبينا حقيقة مقاصدهم ؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه اليوم ، وسيتضح لكل ذى عينين باصرتين أن وراء الأكمة ما وراءها . . . ! !

ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله ، فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى والى كل ما أنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث ، وهى لذلك تستحق أجزل الثناء ، بل إنها لما ينبغى أن نفاخر به أبد الدهر ، إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدُّوا لا يتجاوزون عدد الأصابع ، وهم إزاء هذه الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئاً ؛ وقد قيل إن النادر لا حكم له . فأنت لو تصفحت هذه الأسماء : مرجليوث ، لامنس ، ماسبرو ، دى ساسى ، فلوغل ، كارليل ، كولنبرك ، جنستون ، ستونتن ، هوغتن ، غابلنتس ، سيدليو ، كوسان دى برسفال ، كلاروت ، جيب ، دى لاغرانج رينو ، مونك ، پرون ، كازميرسكى ، كسغارتن ، برنستين ، فترر ، وولف ، بورغستال ، جونس ، غوتوالد ، كريستيانوفتش ، خانيكوف ، بوتجانوف ، سيانكوفسكى ، سافلياف ، غريغورياف ، تورنبرغ ، دوزى ، بروكلمان ، غويدى ، غولد زهير ، هيار ، فمبرى ، زترستين ، نالّينو ، هوداس ، موسل ، بيكر ، دى ڤو ، ماسينيون ، هرغرونى ، فولرس ، ارنولد ، مورتمان ، لشاتلييه ، بوفا ، كاباتون ، هاليفى ، مكدوبل ، دوڤال ، بارت ، ليفى ، كازانوفا ، شوفين ، كولينيون ، دافيدس ، لامبروز ، نافيل . لشككت فى حسن الغاية من أعمال الكثير منها ، ولحرصت على أن تقصر الثناء على بعضها فى تحفظ واعتدال ! !

* * *

كان الباعث الأصلى للأوربيين على تعلم اللغات الشرقية دينياً محضاً . فقد هالهم أمر العرب ، وأدركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين إنما يريدون فيما يريدون الاستيلاء على أوربا بأسرها لنشر تعاليمهم الجديدة والقيام بما أوصاهم به سيدهم الأعلى ونبيهم الكريم محمد بن عبد الله ، والتاريخ يحدثنا انهم امتلكوا حقاً اسبانيا الواسعة ، واجتاحوا جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه Poitiers أو بلاط الشهداء كما يطلق عليها مؤرخو العرب ، ثم احتلوا جزيرة صقلية وشرعوا فى بسط نفوذهم الأدبى على ايطاليا . . . وايطاليا كما تعلم معقل المسيحية الحصين ، ومصدر أشعة الدين ، فعزم الغربيون على أن يحاربوا الاسلام والشرق بكل قواهم متخذين جميع الوسائل الفعالة

لجأوا إلى السيف أولاً فقاتلوا وقاتلوا حتى إذا لم يفلحوا كل الفلاح ولم ينالوا ما يبتغون عمدوا إلى وسيلة أخرى أمرُّ من تلك وأدهى ! فقد عقدوا مؤتمراً كبيراً فى ڤينا عام ١٣١١ ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس ، وقرروا أن تؤسس فى باريس وبولون

(١) مجلة « الرسالة » عدد ١٠٨

واكسفورد وسلمنكا مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما هم فيه مؤمنون . وأنشأ الدومينيكان والفرنسيسكان[1] في أديارهم دروساً في هذه اللغات ، فغدت إيطاليا في ذلك العهد موطن علم الشرقيات . على أنهم كانوا يعنون بصورة خاصة بالعربية والعبرية ، يأخذون الأولى عن السوريين الموارنة كبني السمعاني ، والثانية عن الأحبار الربانيين . فانتشرت العربية بين الطليان انتشاراً عظيما ، حتى أن تجار البندقية وجنوة وبيزا ونابولى كانوا ينظرون إلى أن تعلمها من الحاجات الماسة للحياة على نحو ما ننظر اليوم إلى اللغة الفرنسية أو الانجليزية . وعقيب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربي طبع في روما . ولما قامت الحركة البروتستانية في القرن الخامس عشر وأمدها لوثر بروحه ازدادت عناية الغربيين بالعبرية والسريانية والكلدانية للبحث عن النص الأصلي للتوراة ، وتبع ذلك قيام البابا غريغوار الثالث عشر وأربان الثامن بتعليم اللهجات الشرقية عملياً ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية . وفي عام ١٦٢٧ أنشئت مدرسة « انتشار الايمان » التي خرّجت الألوف من علماء الشرقيات ؛ وكذلك أنشئت في فرنسا على عهد الوزير كولبير مدرسة « الشبان » التي أذاعت الفارسية والتركية وكثيراً من القصص الشرقية كألف ليلة وليلة وغيرها من الرسائل .

(١) طائفتان هما بمثابة جنديين قويين من جنود البابا ، تهيجان الحياة الدينية في نفوس الشعب ، وتحاربان البدع المستحدثة التي لا تجيزها الكنيسة الكاثوليكية ! أسس الأولى اسباني اسمه Saint Daminique هاله تفشي المنكرات وإهمال القسس واجب الوعظ والأرشاد ، فطلب إلى البابا عام ١٢١٥ ميلادية إنشاء فرقة تقوم بنشر تعاليم المسيح وتجديد الطاعة له . وأسس الثانية عام ١٢١٠ ميلادية ايطالي غني اسمه Français d' Assise هاله انغماس الناس في الترف ، وإسرافهم في اللهو والمجانة فنزل عن ماله كله للفقراء وطفق يحيا حياتهم المدقعة ، يمشي في الأسواق متنعلاً حذاء بالياً ويرتدي ثوبا من الصوف أسمر وقد اتتزر من فوقه بأزار مشدود حول وسطه ، فحسبه الناس لأول وهلة معتوها ممروراً فراحوا يعبثون بمرآه ويتندرون به في أسمارهم ويهزأون بتعاليمه الخشنة القاسية ثم كثر أنصاره واشتد ساعده وذاع مذهبه

والطائفتان كانتا متصلتين بالشعب مباشرة أقوى اتصال ، تمتزجان بعامته وخاصته ، فتسكبان في خياله ما تشاءان ، وتصبان في وهمه ما تهويان ، بخلاف الرهبان « الأخرويين » الذين كانت تفصلهم عنه هوة عميقة بسبب انكماشهم وجمودهم في الكهوف والأديار

وفي نهاية القرن السابع عشر نشر اليسوعيون أتباع لويولا اللغتين اليابانية والصينية وثقافتهما

على أن الاستشراق بعد ذلك قد تبدلت بواعثه ، فغدا يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين ، ذلك لأن في القرن الثامن عشر ظهرت طائفة من الكتاب كفولتير وغيره حملت على الدين ورجاله حملة منكرة ، وتناولته بالسخرية والتهكم المر ، غير مبقية على شيء من احترامه القديم وسلطانه النافذ ؛ ولأنه قامت في ذلك الحين ضجة الاستعمار وثار الغرب على الشرق يريد استعباده . فوضع المستشرقون أنفسهم تحت تصرف رجال السياسة ، يدلون إليهم بما يعلمون عن الشرقيين لتتمكن أقدامهم في بلاد الشرق ، وتكون لهم على أهله سلطة خالدة .!!

ونلاحظ في هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات في مختلف المدن الشرقية ، فقد أنشأ المستشرقون جمعية العلوم والفنون في باتافيا عام ١٧٧٨ ، والجمعية الأسيوية في البنغال عام ١٧٨٤ ، والجمعية الأسيوية في بومباى عام ١٨٠٥ ، والجمعية الأسيوية في باريس عام ١٨٢٢ ؛ وقد بذلت هذه الأخيرة جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه لا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة ، وعلم وأدب ، لتقدم للحكومة آخر السنة تقريرها المعروف الذي لا يضم بين جوانبه حقائق تمليها العدالة ويمليها الواقع ، وإنما ينطوي على سموم من الحقد وأثر من المغالطة ! وهذه المجلة الأسيوية la revue Asiatique التي ما تزال حتى الآن تصدر في باريس مرة كل شهرين إنما هي أثر من آثار هذه الجمعية . . .

لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، يترددون على رجالاتهما لمعرفة ما جدّ وتغير من القرارات ، وأن هذه البعثات التي يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما زعمون تقصد وجه العلم خالصاً ؛ وإنما هي في الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الماكرة الجاثمة في الوزارتين المذكورتين ، تطوف أنحاء الشرق باسم العلم منقبة باحثة ، حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيهما معلوماتها طروبة فخورة ! وكثيراً ما كانت هذه

البعثات « العلمية » تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية ، وقد تطرد منها أحياناً على أسوأ حال !!

***

وبعد ، فلو نظرنا إلى بحوث علماء المشرقيات التي خطوها عن الأدب العربي والعقلية العربية ، وفلاسفة العرب لاستخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة ؛ هـذه نظرية « السامية والآرية » التي يؤمن بها أغلب المستشرقين والتي تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس السامي على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة ، لا يحسون بالجمال والفن ، ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية . يقول أرنست رينان(١) في الفصل الأول من كتابه في تاريخ اللغات السامية : « إن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالها جارياً إلى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عن الجنس السامي تقريباً . فالبحث التفكيري المستقل الدقيق العميق ، أو بعبـارة أخرى التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهنـدي الأوربي (الآري) الذي كان يبحث منـذ أقدم العصور إلى الآن لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذي ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا إلى أصفى صورة دينية عرفها التاريخ فالمدرسة الفلسفية موطنها اليونان والهند ، في وسط قوم طُلَعَـة يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشـياء . أما المزامير والأناشيد والـكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة في شكل ألغاز فهي من نصيب الجنس السامي

« والجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به ، فهو -- أي الجنس السامي -- ليست له هذه الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبـة عند الـكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) ، وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولـكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم

« من آثار التوحيد عند الساميين التعصبُ ، فعدم وجود التسامح الديني عنـد الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم في التوحيد ، ومسألة النبوات والوحي هي من المسائل التي تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم إلى كتابيين وغير كتابيين

« والساميون تنقصهم الدهشـة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ، والتي تدعو إلى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا : « ربنا قادر على كل شيء » كما أنهم في حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب في عصر العباسيين وجب أن يكون الجواب على ذلك إنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمي فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع انه لم تظهر لها أي مبادئ أو مقدمات في شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية ، وهذا هو كل ما في الأمر ، كما انها لم تزدهر إلا في الجهات البعيـدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس

« والتوحيد له تأثير أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنويع ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين ؛ والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازي عند اليهود والشعر الشخصي الغنائي عند العرب ، والأبطال في هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية إلى الغاية التي نجدها في الشعر العربي واليهودي ترجع إلى خصيصة أخرى من خصائص النفس السامية وهي انعدام المخيلة الخالقة عندهم ، وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع .. !!

« والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامي البحت لم يعرف مطلقاً إلا نوعاً واحداً من القصاص هو

(١) عالم فرنسي ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٨٩٢ ، كتب في التاريخ وبحث في اللغة ثم قارن بين الشعوب وانتهى كما ترى الى هذا الخلط العجيب الذي لا يقول به الجاهلون بله العلماء !

الموت . وملكة الضحك معدومة عنـد الساميين ، حتى إن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة

« والساميون عنـدهم نقص تام فى كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودهما عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهى الفن الشخصى إلى الغاية هى الفن الوحيد الذى عرفه الساميون

« والأخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها ، فالسامى لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه ، وإذا طلبت اليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده وأن يقيم العدل بلا تحيز فانما طلبت اليه مستحيلاً ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها » (١)

لن نناقش الآن هذه النظرية أو نقول فيها رأياً ، لأن ذلك مما يطول بنا ، وحسبنا أن ندل على شيء مما يعتقد المستشرقون ، ومع أن تسعين فى المائة من هذه النظرية خطأ واختلاق فقـد أحلها الغربيون من نفوسهم المحل الأرفع لأنها توائم نزعاتهم وتتفق وميولهم الطافرة إلى السيطرة والاستعمار

* * *

لست أدرى ما الذى يرضينا فى المستشرق ! ؟ آلعلم النزيه ، وقد رأينا أنه إنما كان لآراب أخـر ، أم الذوق الأدبى ، وليس من شك عندنا أنه بعيد عنه بعد الأرض عن السماء ! فالمستشرق مهما تضلع من اللغة العربية ، وأخذ من الثقافة الأدبية ، وتغلغل إلى الروح الاسلامية فلن يدرك أبداً غاية الأدب وأثره وحدوده ولن يستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيدة فنية على نحو ما يتذوقها العربى ! هو يفهم القرآن ولـكنه لا يخشع عند سماعه أو تلاوته ، ويشرح القصيدة العربية غريبها وبديعها وعروضها ولـكن أذنه لا تطرب لهـذه الرنة الموسيقية البثوثة فى أطواء الشعر العربى ؟

حمص — **محمد روحى فيصل**

(١) العبارات هنا من ترجمة الأستاذ صادق برسوم مطر

صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحى ، وزوّار الامام الشافعى ، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية ، ليروا مقابر الخلفاء والماليك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميعاً ، ولكنه غير بصير ؛ وكان له حجر عال عريض يقعد عليه ، ولا يريمه ، فى الشتاء والصيف ؛ ولم يكن يبالى لا الشمس ولا الرياح ، ولا المطر ولا التراب ؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر ، فاذا غابت الشمس ودخل الليل ، اختفى ، كأنما ابتلعته الأرض ، أو انشق له الحجر فغاب فيه ، فكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد ، وأن كل راكب يميل اليه ويترجل عنده ، ويضع بين أصابعه زمام دابته ، حتى يفرغ من الصلاة فى المسجد أو غيرها مما جاء له ، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضى . وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل فى الحى ، وكل غريب ألقى اليه بزمام حماره أو بغلته أو فرسه أو مهره ، من صوته ؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو ممسك بالأعنة — حمار مَن الذى نهق ، وأى هذه الدواب تملك لجامها ، وأى البغال مزنوقٌ فيرفه عنه ويرخى له الرباط الذى تحت حنكه ، وأى حمار تفلتت الشكيمة من فمه ، فينهض اليه ويردها إلى مكانها من فيه ، وأى الأفراس انحل إبزيم منطقته فيعقده ، أعني يدخل لسانه فى طرفه الآخر . وكان كثيراً مايشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق ، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة ، أو برفع المهماز إذا أحس بيده آثار وخزه فى جلدها ، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً بظهرها ، فقد كان رحيما رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها ، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فكان يمشي مطمئناً واثقاً ، كأنما يرى الطريق ، ويلقى التحية إلى الناس بأسمائهم ، فى دكاكينهم حين يبلغها ، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض ، فيقول له : « مالك مستعجلاً يا فلان ؟ خيرا ، إن شاء الله ! » وكان — ولا يزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذى أمام المسجد يؤدى اليه سلم ، درجاته متهدمة ، فكان إذا بلغها يرقى فيها كأنه صبى فى العاشرة من عمره ؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال ، ويركضها فى الطرق والسكك التى ألفها ، فاذا اعترضه زحام أو قطيع من الغنم ، حبس الدابة ، ثم أرخى لها اللجام ، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نَقَر[1] بها ، ازعجها ويستحثها ؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان ، لا تطاوعه نفسه حتى على نكزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر ، لايتجهم ولا يكتئب ، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا ، ضحوكا ، طيب النفس ، حلو الدعابة ؛ ولكن غزله كان فيه بعض العنف ، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه اليه بقوة فينتتف بعضه ؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء ، وجاء معه طبيب عيون ألمانى ، فأدار عينه فى الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار اليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشى — أمير الجيوش — فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه ، فقالوا : « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به ، فتعجب ، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم   قد ضل من كانت العميان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله ، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه اليه ، ووجد فى صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس ، فنشأت بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة ، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام ، ويجلس إلى جانبه على حجره العالى ، ويراعيه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها ؛ ووقع من نفسه رفقه بها وحسن تعهده لها ، فقال له يوماً — بعربيته المحطمة — إنه يريد أن يعمل له فى عينيه شيئاً ،

(١) النقر أن تلوى لسانك إلى فوق وتلزقه بحنكك ثم تطلقه بقوة فيفرقع

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تترافس

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولا يدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شىء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس . ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيرثها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النورُ الحجرة وملأتها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى محياه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وارفضّ دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه

« لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولاحيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم — صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ — طائفة البهرا فى الهند

ملاحظات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمــــة

يقول الكهل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فاذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلّها ، فلاذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت مذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شىء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألاّ يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبدا . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرقُ بينه وبين سواه ، فان أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ

من غـير طائفته ؛ ومُعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الدائمة لمعاونة أخيه فى مذهبه ، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم ، حتى (الحـكومة) يعزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصى إفريقية على بمبى ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسـه وتذهب وحشته ، فينفسح بما يحتاج التجارة إليه من مال ، يبدأ به عمله ، فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدى طائفته ، فلا يكاد ذلك يَضِح لهم ، حتى ينهالوا على بضاعته ابتياعاً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فلن تجده مهما نقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يبق الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة فى حاجة إلى الراعى ، يصرفها ويسهر على تدبيرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضى هو داعى الدعاة فى بمبى ، وهو نائبه فى كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخولونه أمرهم فيقضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا يراجع فى أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فـكيف يبرم عدله ولا ينال المظلوم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل المظلوم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم ، فيادعى القوم ! كفنى عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كالموت لا يُعتِبُ . . . هـذا قاض أمره عجيب ، وقضاؤه أعجب ، أتراه يمضى على شرعة مدونة ؟ أتراه يستلهم قانوناً بعينه ماله عنه من محيد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنهـا تسترقُّ الناس حولها ، مرتغبين لا مرتهبين ، بدافع الحب ، ومظهرُ الحب الخضوعُ ، يسمو حتى يصير تفانياً . تتجه القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتعلق القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تتقبل ظلمه قبول الرضا ، لأنه ولى المالك المتصرف – فى رأيها – فاذا عدل ، تفانت فيه ، فاذا أحب فنيت فى روحه ، وذاك داعى الدعاة عند طائفة البهرا هو فرد ولـكنه الجماعة كلها ، وهم جماعة ولـكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير ، هو قلب هـذا الرجل ، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه ، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون . ولقد علمت أن الحب شريعتهم ، فاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهى التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ نعم فلـكم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأعزت يتيماً ، وروّت صادياً ! وهل يكون ساقى البذرة إلا رب ثمارها . . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِئُه طعامُه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتغل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، وربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش فى المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فـكان لا ينقطع عن العبادة فى ليله أو نهاره ، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لراقد بالعراء لا يحمل لدنياه هماً ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبى به فى بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تـكأكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يا رسول الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فعجب النبى عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟. من يقوم بطعامه ؟ ! رسول الله يسأل ؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكد النبى يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، ترجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسول الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبى ترصد ابتسامة الرضـــا ، فاذا بالوجه المشرق الـكريم يعبس ، ويضطرب ، ثم تجتمع فى غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلـكم خير منه) . داعى الدعاة الشيخ المسن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدسونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملـكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقـال من حجرة من قصره إلى

أخرى ، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم ، فيقضي بعض نهاره عاملاً لدنيـاه ، كأنه على شيخوخته وضعفه ، يعيش أبدا

إن الدين لله ، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته ، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار ، إنما يسمو رجل الدين ، وتخلص روحه ، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا ، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده ، مزدرياً للوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى ، بأن دعوته رهن بوظيفته ، ووظيفته رهن بدعوته . . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً ؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره ، بادي النعمة واليسار ، عالي الكف يعطي ويتعفف أن يأخذ ، وكيف السبيل ؟

سبيل واحد يسلكه داعي الدعاة البهرى ، وعماله في مختلف البلاد ، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ كان تاجراً ؛ وفي التجارة وهي أم (المعاملات) ، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب ، ومن كل فضيلة في الأرض ، وهي التي توجت (بالأمين) اسم محمد ، و (بالصادق) أمانة محمد ، فكانا شافعيه لدى الله في اختياره ، ولدى الخلق في دعوته

وفي هامش هذا الحديث فلنذكر ، أن داعي دعاة البهرا ، أراد في العام الماضي ، وكنت حينئذ في بمبي ، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسنين ، ومفيض نفسه ودمه ، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير ، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال ، وأسباب التحدث بنعمة الله ، وفي سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر ، عبرت به إلى البصرة في ستمائة بهرى ، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمجد الناس من عطاياه ، بأكرم ما يتسع له كرم ، وأكمل ما يفيض به جاه . . فمن أين ؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه

***

فلينته هذا الحديث الذي لا يفرغ منه ، بأمرين ، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة ، وعلى قدر القلة في عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح ، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيلة ، وكأننا أحفادهم ، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة ، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار ، وأيسر حرفة مع الفضيلة ، فاذا أهبنا برجل الدين ، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعول عليها ، ويلتمس شرفها ، فأخلق بكل رجل أن يحملها أمنيتيه من الغنى : غنى النفس وفي أعقابه غنى المال ؟

القاهرة — محمد نزيه

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحه

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن « النهضة التركية الأخيرة » وما تناوله من بحث ونقد أبرز الاصلاحات الكمالية بقلم نزيه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذي يشاركه فيه كل شرقي يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق ، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب ..! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم ، في حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التي تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة :

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد . إلا أنه من الانصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها . . فاننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها ، ومن اشتهر بينهم من أعلام الموسيقى ، بل حفظوا لنا ثمارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم « النوتة الغربية »

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين الموسيقي على أخطاء كثيرة ، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها ، وتبحروا في علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء ، ولهم في هـذا

الميدان جولات موفقة ، حتى أنهم استنبطوا كثيراً من الأنغام الشائعة بيننا ، ووجهوا عنايتهم كذلك إلى علم الايقـاع ، ووضعوا لأوزانه طريقة حديثـة تدون بها ، كما أن لهم فضلاً لا يستهان به فى ابتكار جملة ضروب زادت من جمال الموسيقى الشرقية . هذا الى اهتمامهم بضبط مسافات السلم الموسيقى الشرقى وعدم تركهم كبيرة ولا صغيرة فى الموسيقى النظرية أو العملية إلا قتلوها بحثاً وتمحيصاً

إنه حق وفضل لاينبغى إنكارهما . . وقد كنا إلى عهد قريب نعترف فخورين بزعامة تركيا للموسيقى الشرقية

فلما قامت « النهضة التركية الأخيرة » تهللنا بشراً وقلنا لا بد أن القوم لن يقنعوا بما وصلت اليه موسـيقاهم من تقدم ونجاح ، وسيدأبون على البلوغ بها إلى أوج المجد والعظمة . . ولـكن أحلامنا اللذيذة لم تلبث طويلاً عند ما فوجئنا بقرارات الـكماليين القاسية التى منهـا : استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية ، وهجر ألفاظ لغـة الضاد ، والترحيب بالمصطلحات اللاتينية و... وأخيراً .. عدم استعمال الأرباع الشرقية ، وإلغاء الموسيقى التركية وإحلال الغربية محلها . . !

نزلت علينا تلك القرارات نزول الصاعقة وهدمت ما كنا نبنيه من آمال . . وظهر لنا ما يضمره الـكماليون من إسراف فى هجر الشرق والشرقيين ، ومن رغبـــة فى الفناء فى الغرب والغربيين . . !

تتأثر موسيقى كل أمة ـ كما يتأثر أى فن ـ بعوامل شتى : منها الجو والأخلاق والعادات وغير ذلك . فليس من السهل أن نبدل بقرار ذوق أمة فى غمضة عين ، لأنها لم تـكتسب هذا الذوق إلا بمرور الزمن وبفعل مؤثرات البيئة التى تعيش فيها . فقرار التركى الأب « أتاتورك » إلغاء الموسـيقى التركية لا محالة خاطئ لأنه يجبر الأتراك على موسيقى لم يتذوقوها ولن يتأثروا بها مطلقاً . . فاذا سمع التركى مثلاً قطعة حماسـية غربية فلن تهز مشاعره بقـدر ما تفعل فيهـا قطعـة تركية ، لأن الأولى لم تصـل إلى طريقة استفزاز شعور التركى ، ولم تصدق فى التعبير عن نفسيته ، بعكس الثانية ؛ وإذا كان الألمانى مثلاً لا يتأثر بموسيقى الفرنسى أو الروسى كما تؤثر فيه موسيقاه ، فـكيف بالتركى ، والفرق شاسع جداً بين تقارب أمزجة هؤلاء و بُعد هذا الأخير عنهم..!

كان الأجدر لو أريد قتـل الموسيقى التركية أن تشجع الموسيقى الغربية ويشجع الاقتباس منها والتطعيم بها ؛ فعلى مر الزمان تزول تلك الموسيقى التى لا نصير لها ، بدل هذا التصرف الذى استعملت فيـه الطفرة . ولـكن من يجرؤ منهم على إعلان هـذا الرأى يكون نصيبه شراً مما نال الأستاذ المدرس بالجامعة فى المؤتمر اللغوى ، وحسين جاهد ، وقد أشار اليهما حضرة الدكتور عزام فى إحدى مقالاته القيمة . . !

من هذا نلاحظ أن الديوان الموسـيقى الغربى مكون من أصوات كاملة وأنصافها ؛ بينما الديوان الشرقى يتكون من أصوات كاملة وأنصافها وأرباعها أيضاً .. ولـكنهم مع ذلك آثروا الديوان الأول لأنه غربى قبل كل شىء . . . !

فاذا كان الديوان الغربى موجوداً بتمامه ضمن الديوان الشرقى ، وبذا يتسنى عزف أية قطعة غربية على أية آلة موسيقية شرقية ، مع أنه فى كثير من الآلات الغربية لا يمكن عزف أغلب القطع الشرقية . . . وإذا كانت الأرباع الشرقية تتيح ثروة جديدة فى علم الأنغام زيادة على الثروة التى نحصل عليها من الأنصاف وحدها ، وبذا يتسع المجال أمام الملحن ويمكنه أن يعبر بلحنه عما يشاء . . . . فهل من الحـكمة أن نلجأ إلى الديوان الناقص ونترك الديوان الـكامل . . . ؟

إن كل مزايا الديوان الغربى موجودة فى ديواننا الشرقى ، وفوق ذلك فان لديواننا مزايا أخرى عندما نستعمل الأرباع الصوتية ، فلا شك حينئذ فى أن قرار الحكومة التركية إلغاء الأرباع الشرقية فى الموسيقى لم يكن لعيب فى هذه الأرباع بل إتماماً للخطة التى رسموها من البعد عن كل ماهو شرقى أو يمت للشرق بصلة . .

الآن . . وقد ظهر للملأ تصرف الحـكومة الكمالية وتنصلها من كل ما يقربها من الشرق سواء كان ذلك فى الدين أو العلم أو اللغة أو الفن أو الأخلاق والتقاليد ، فليس من الخير أن يقتصر موقفنا على مراقبة أعمال هذه الحـكومة وعلى مناشدة الـكتاب والمفـكرين أن يتعاونوا فى هـذه السبيل « حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشُّبه المضلة ، ثم يسيروا بهـا على المحجة البيضـاء إلى الغاية المجيدة » كما يتمنى الأسـتاذ الفاضل الدكتور عزام ، بل يجب أن نفـكر تفـكيراً جدياً فى نقل الفنون الشرقية من تركيا كى نحافظ عليها قبل أن تعفو ويطويها البلى

فالى مفكرى الشرق العربى أرسل هذه الصيحة راجياً أن

يولوها حقها من الاهتمام ، وأهيب بوزارة المعارف المصرية أن ترسل إلى تركية بعثة من طلبتنا النجباء كي يدرسوا فنون الموسيقى الشرقية الصميمة ، وينقلوا لنا كل ما تصل اليـه أيديهم قبل أن تتلاشى هذه الفنون ويتم حلول الموسيقى الغربية محلها ، وذلك أسوة بالبعوث التي ترسلها إلى أوربا ؛ وهناك يتشبع الطلبة بالموسيقى الغربيـة ولا يكونون فى المستقبل حرباً على الموسيقى الشرقية التى من العار أن تنهض على حساب الموسيقى الغربية أو تتلوث بدماء دخيلة فيتعكر صفاؤها . .

اسكندرية   عبد الحميد رفعت شمة

دراسات فى الأدب الانكليزى

٣ - وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

أشعاره ونظريته فى الأدب

ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه Syrical Balleds سنة ١٧٩٨ كما بينا سابقاً ، أما الطبعة الثانية فقد نشرت سنة ١٨٠٠ حاوية مقدمته الشهيرة التى ضمنها نظريته فى الأدب عامة وشعره خاصة دون خيفة أو تردّد . ولكولردج فى الطبعة الأولى من هـــذه المجموعة ثلاث قصائد . غير أنه أضاف إليها قصيدتين أخريين ظهرتا فى الطبعة الثانية . وهذه القصائد الخمس هى « الملاّح القديم ، والعندليب، و Foster-Mother tale ، و Dungeon ، والحبّ » . وما كاد الأدباء والكتاب يطلعون على آراء وردزورث فى مقدمة ديوانه ويقرأون أشعاره فى ديوانه حتى تناولوه بأقلام نارية وألسنة حادّة ، فسخروا ما شاء الله لهم أن يسخروا بآرائه وأشعاره . ولم يبق ديوانه فى شكل واحد بل ظهر فى أوضاع شتى ، وكان الشكل الأخير الذى ظهر فيه سنة ١٨٤٥ جامعا جزأين مع المقدمة ومذيلا بملحق فى (التعابير الشعرية) Poetic Dicton

أما النظرية التى أودعها المقدمة فتتلخص فيما يلى : —

« على الشاعر أن ينتزع موضوعاته من الحوادث العادية المألوفة ، وأن يعبر عنها بلغة سهلة واضحة ليفهمها « الراعى والعالم » على السواء . أى لا تكون خِلْواً من البلاغة ، ولا تهبط الى درجة الركاكة والفهاهة . وعليه أيضاً أن يلبس الحوادث كساء من الخيال الرائع لكى تظهر وهى عادية مألوفة غير عادية ولا مألوفة ، وأن يقف تجاه كل حادث موقف العالم المدقّق المحقّق ، الذى يحلّل الأمور تحليلاً علمياً منطقياً ، فيبحث عن المسبّبات ويرجعها إلى أسبابها ، محكما فى كل حالة عقله فى التحليل وعاطفته فى التعبير . أما الشعر فهو الانبعاث الطبيعى للشعور القوى الزاخر ؛ وما الشاعر إلا إنسان يخاطب بشراً ، إنسان شديد الاحساس والغيرة متضلّع من درس الطبيعة البشرية ، تنكشف له نواح فى الحياة ومظاهر فى الطبيعة تحتجب عن غيره ، وهو يعبّر عن موضوعه بلغته ليتغنّى بها الجميع . بهذا يمتاز الشاعر من سائر البشر عموماً ومن علماء الطبيعة بعض الامتياز خصوصاً »

ولقد نحا وردزورث فى انتخاب موضوعات أشعاره منحى إسحاق ملتن ووليم بلايك وروبرت برنز وقراى وغيرهم ، غير أنه لم يقتصر على أسلوب واحد فى النظم ، بل طرق معظم البحور والأوزان الشعرية التى سبقه إليها الشعراء قبله . أما سبكه اللفظى ففى غاية الدقة والبساطة ، وتراكيبه خالية من الألفاظ اللاتينية التى يكتظ بها شعر مِلْتِن ، ومن قالكية پوپ ، أو إبهامية پروننج الناجمة عن تطرّفه فى الايجاز . ويندر أن تجد فى شعره رجوعاً إلى الأساطير الأولى أو اقتباساً من الأدب (الأصولى) الكلاسيكى أو تقليداً له ، ولقد أكثر من دراسة الشعراء الذين سبقوه وخصوصاً شكسبير ، وملتن وجوسر وسبنسر وكوبر وقراى وتشبع بآرائهم وأساليبهم فنسج على منوالهم فى بدء حياته ، غير أنه عاد فابتدع له أداة للتعبير خاصة به . أما ميزات شعره فتتلخص فيما يلى :

بساطة الأسلوب وسهولة التعبير ، ووضوح المعنى فى أغلب الأحيان

انتزاعه موضوعات أشعاره من الطبيعة والحوادث اليومية والأشياء العادية المألوفة . وقد ورد ذكر هاتين الميزتين فى الكلام على مقدمة ديوانه

تصوف :

وهذه إحدى خصائص الحركة الابتداعية التى كان يمثلها شاعرنا فى بلاد الانكليز أصدق التمثيل . ووردزورث يرى أن الله روح تقطن فى جميع مظاهر الكون أو الطبيعة الخارجية من هواء وجبال ورياح وصخور حتى الرعاة والحيوانات . وتظهر لنا هذه الفلسفة جلية فى قصيدته Tintern Abbey ، وتعرف عند أهل اللاهوت والصوفية « بشمول الألوهية » أو « وحدة الوجود » Pantheism ، « أى أن الله إنما هو القوى والنواميس الطبيعية وأنه حال فى كل شىء وليس مستقلاً » . على أنه لم يتمسك بهذه العقيدة تمسكاً دينياً ذميماً كما يظن بعضهم ، بل اتخذها عقيدة شعرية وقتية دفعته عاطفته وروحه الشعرية إلى إيرادها فى سياق الكلام

ولعه بالطفولة والأطفال :

وهذا ظاهر فى معظم قصائده مثل « نحن سبعة » ، وفى القصائد التى ورد فيها ذكر الطفلة « لوسى » . وتتجلى هذه الخاصية بوضوح فى قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » ؛ ففيها يرى أن الانسان أقرب ما يكون إلى الله وإلى السماء فى أوان الطفولة . وهو يؤمن بسابق وجود الانسان وأزليته (Preexistance) ، أى ان الانسان كان أصلاً فى السماء فهجرتها روحه وظهرت فى جسد بشرى على الأرض . فالانسان فى عهد الطفولة يكون بحكم الطبع قريباً جداً من الزمن الذى قضته روحه فى السماء ، لهذا يفضل عهدُ الطفولة عهدى الكهولة والشيخوخة . إلا أنه يحسن بنا أن نرفق بالشاعر فلا نُجرى عليه الأحكام الجارفة فى كل ما نعزوه إليه من العقائد . فهو — كما بيّنا سابقاً — لم يكن متعصباً لرأى أو لعقيدة واحدة منظمة شأن كبار الفلاسفة أو اللاهوتيين وإنما كان شاعراً يكتب عن عاطفة شديدة ، فهو لا يستقر على رأى من الآراء ما دامت العاطفة لا العقل هى الدافع والمحرك له فى أغلب منظوماته

الخيال الرائع

يمتاز وردزورث بالباسه الأشياء الطبيعية المألوفة كساءً من الخيال الراق ، وعنده أنه كلما ازداد الشاعر توسماً وانطلاقاً فى عالم الخيال ازداد لذة واستمتاعاً فى الحياة . ويختلف عن كولردج باتخاذه عاديات الأشياء ومألوفها مواضيع تصويره وخياله متوخياً أن يبتدع مما هو عادىٌّ ومألوف شيئاً جديداً مبتكراً . فبينما كولردج يتدرج من عالم الروح والخيال إلى عالم المادة والحقيقة ترى وردزورث يشرع من عالم المادة وينتهى عند التصاوير الشائقة والأخيلة الرائعة

غموض معانيه

وهذه الميزة لا تلازم معظم أشعاره وإنما تصدق على البعض منها . وغموضه ناجم عن عجزه فى بعض الأحيان عن التمييز بين ما هو عادى مألوف وما يظنه غريباً نادراً ؛ هذا عدا جنوحه إلى إلباس الأشياء العادية حلة من رائع الخيال مما يوقع القارئ فى ارتباك شديد يجعله غير قادر على إدراك المعنى الصحيح وتفهم ما يتوخى الشاعر إفهامه .

وعدا هذا يمتاز وردزورث بوصفه الحيوانات والطيور الأهلية منها والبرية . ويؤخذ عليه ندور ورود النكتة فى أشعاره ، وأن أشعاره لا تلهب الحماسة فى نفس القارئ

ولكى يتم لنا البحث فى أشعاره لا بدّ لنا من أن نقول كلمة فى قصيدتين كبيرتين من قصائده ألا وهما الفاتحة The Prelude والنزهة The Exeursion . أما « الفاتحة » فهى ترجمة وافية لحياة وردزورث الشعرية ، ففيها يبحث عن تطور نفسه الشعرى ونمو سليقته منذ عهد الطفولة . فى هذه القصيدة ملتقى حاضره وماضيه ، وفى هذا الملتقى مبعث لشعوره . إذ أنه كلما ذكر أيام الصبى اللذيذة اختلجت فى نفسه عاطفة قوية وتملكه شعور لذيذ لا يتمالك من بعثه شعراً حياً لا أثر للكلفة فيه . وللذاكرة المقام الأول والفضل الأكبر فى تصويره أحلام الطفولة وأيام الصبى ، إذ لولاها لنضب معين شعوره وانحبس لسانه عن التعبير عما يجيش فى صدره من مشاعر وفى نفسه من خلجات ، ووقف قلمه عن وصف الأوبقات العذبة الهنيئة التى قضاها تحت كنف أمه الرؤوم : الطبيعة بأبسط معانيها وأجلى مظاهرها . وهذه القصيدة مهداة إلى صديقه الشاعر كولردج ، وتقع فى عدة أبواب يختص الأول منها بحياة الطفولة ، والثانى بحياة المدرسة ، والثالث بالسنين التى صرفها فى كمبردج ، والرابع فى حياة لندرة ومؤثراتها ، والخامس بزيارته الأولى لفرنسا والألب وإقامته فى فرنسا خلال الثورة الفرنسية ،

غير ذاكر شيئاً عن علاقته بأنيت ڤالون معشوقته المعهودة

أما « النزهة » ففيها يحلق الشاعر ويسمو فى عالم الروحيات إذ هى مجلى تأملاته فى الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والصوفية ، وفيها يطرق شتى الموضوعات العلمية البحتة ، كتركيب العقل ونشوئه ، وفلسفة العواطف ، والتأمل ؛ غير أنه يكسوها حلة من الخيال ، ويعبرعنها بأبسط التراكيب وأسلس العبارات وأوضحها ، هذا إذا ضربنا صفحاً عن جنوحه فى بعض الأحيان إلى الغموض فى المعنى . « والنزهة » تقع فى تسعة أجزاء مقتضبة ، كل فصل منها حاو لقسم من أقسام القصة التى يسردها ويجعلها هيكل هذه القصيدة الكبرى

وهو فى جميع مباحثه هذه لا يتوخى غير الصدق واظهار عظمة الخالق . أما مدار بحثه فى هذه المواضيع فنفسه ، لا لأنه صنع من جبلة غير التى صنع منها سائر البشر ، بل لأنه أكثر علماً بنفسه من غيرها من النفوس

ولقد أثارت نظريته هذه وأشعاره جدلاً عنيفا وبحثاً متواصلاً فى البيئات الأدبية ، فمن الأدباء من حمل عليه وطعن فيه ، ومنهم من انتصر له . ومن الذين انتقدوه فرنسيس جفرى وبيرون وهزلت ، ومنهم أيضاً صديقه كولردج فى فصل من كتابه (تراجم أدبية) ، بيد أنه لم يكن هدّاماً فى نقده ولا شديد التحامل عليه فى تعليقه على آرائه كغيره من النقّاد . أما إمرسن الكاتب الأمريكى الشهير فينتصر له ، ويعدّ قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » التى تمثل عقيدة شاعرنا الفلسفية ونظريته الأدبية بعض التمثيل ، من أروع بل أروع ما خلّفه لنا أدباء القرن التاسع عشر من القصائد . ولقد كان ديوان ورد زورث معواناً للفيلسوف الانكليزى الشهير جون ستوارت مِل على تخلصه فى ربيع حياته من السوداء التى كانت تلازمه من حين إلى آخر ، إذ وجد فى قراءة القصائد الفلسفية والدينية منها راحة وعزاء بل خير شفاء له من دائه النفسانى

ومؤرخو الأدب الانكليزى يجعلون السنة التى ظهر فيها ديوان ورد زورث لأول مرة ، أى سنة ١٧٩٨ ، فاتحة العصر الابتداعى ، لأن أشعاره تمثل الحركة الابتداعية من الناحية الأدبية خير تمثيل . ولكى يتضح لنا معنى هذا القول علينا أن ننظر بعض النظر فى خواص هذه الحركة ، وخصوصاً الناحية الأدبية منها

(البقية فى العدد القادم) **عيسى القدوسى**

فى اللغة والأدب

المثنيـــات

للأستاذ محمد شفيق

إن من خصائص اللغة العربية التى امتازت بها على غيرها من اللغات الحية هذه المثنيات[1] . وقلما يخلو علم من علوم لغة الضاد من مثنيات إن قليلة أو كثيرة . وقد رأيت أن أقدم إلى قراء « الرســـالة الغراء » أمثلة منها مرتبة على العلوم ، مبتدئاً بالأدب واللغة لشدة علاقتهما بالرسالة ، وإن كانت هى حفية بالثقافات الاسلامية والعربية وغيرها :

المثنيات فى اللغة والأدب والنحو والعروض

(الابردان) الغداة والعشىّ ، والظل والفىء ، وفى الصحاح : الابردان : العصران . (الأبيضان) اللبن والماء ، أو الشحم واللبن ، أو الشحم والبياض ، أو الخبز والماء ، أو الحنطة والماء ، أو الملح والخبز ، قال الشاعر :

ولكنه يأتى إلى الحول كاملاً ومالىَ إلا الأبيضينِ شرابُ

(الأجَدّان) الليل والنهار ، وكذلك الجديدان ، والدائبان والطريدان ، والعصران ، والملوان ، والأحدثان ، والأصرمان .

(الأحمران) الخمر واللحم ، وفى المثل « أفسدَ النـاسَ الأحمران » قال الشاعر :

---

(١) وقسموا المثنى الى نوعين : المثنى الحقيقى وهو مشهور ، والمثنى التغليبي وهو تغليب احد المتجاورين والمتشابهين على الآخر فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصداً إليهما جميعا ، والتغليب يكون تارة للشرف وأحياناً للشهرة وآونة للخفة كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر . قال الزجاجى ... قال المفضل الضبى ... وجه إلى الرشيد فخرجت حتى صرت إليه ... فقال يا مفضل عندك مسألة تسأل عنها ، قلت نعم يا أمير المؤمنين قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال قد أفادنا هذا قبلك هذا الشيخ – يعنى الكسائى وكان فى المجلس – لنا قمراها يعنى الشمس والقمر كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر ، قلت ثم زيادة يا أمير المؤمنين ، قال زد قلت : فلم استحسنوا هذا ؟ قال لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد وكان أحدهما أخف على الأفواه غلبوه ... قال قلت قد بقيت مسألة أخرى ، فالتفت إلى الكسائى وقال : أفى هذا غير ماقلت ؟ قلت : بقيت الغاية التى أجراها الشاعر المفتخر فى قوله ، قال : وما هى ؟ قلت : أراد بالشمس ابراهيم خليل الرحمن ، وبالقمر محمداً صلى الله عليه وسلم ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين ؛ فسر وأمر له بجائزة عظيمة

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالى وكنت بهن قدماً مولعا
الرّاح واللحم السمين وأطّلى ... بالزعفران فلا أزال مولعا

(الأخضران) النباتان القريب والبعيد، لأنّ القريب أخضر حقيقةً، والبعيد كما قالوا أسود؛ والأسود عند العرب أخضر، يقال فلانٌ أحرق الأخضرين: يراد المبالغة فى ظلمه وتعديه، كأنه يوصل الشرّ إلى القريب والبعيد. وقيل الأخضران: النبات والانسان من العرب؛ قال الفضل بن العباس:

وأنا الأخضر من يعرفني ... أخضر الجلدة من نسل العربْ

(الأصرمان) الذئب والغراب لأنهما انصرما عن الناس، أى انقطعا، قال:

وموماة يحار الطرف فيها ... إذا امتنعتْ علاها الأصرمان

(الأعميان) السيل والفحل، والسيل والحريق، والسيل والليل، والسيل والجمل الهائج: لأنها لا تتقى موضعاً ولا تتجنب شيئاً كالأعمى الذى لا يدرى أين يسلك فهو يمشى حيث ذهبت رجله

(البازيان) الأعشى وجرير. كان أبو عمرو بن العلاء يقول: الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى

(البردان) الغداة والعشى، قال ابن خالويه: حدثنا ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى قال: دعا أعرابىّ لرجل فقال: أذاقك الله البردين — يعني بردَ الغنى وبرد العافية — وأماط عنك الأمرّين، يعنى مرارة الفقر ومرارة العرى، ووقاك شر الأجوفين، يعنى فرجه وبطنه

(الحكيمان) أبو تمام والمتنبى: سئل أبو العلاء عنهما وعن البحترى فقال: هما حكيمان والشاعر البحترى، كأنه يريد أنهما ينتزعان المعانى من كلام الحكماء ويراعيان الصناعات الشعرية التى أحدثها المتأخرون، وأما البحترى فانه يجرى على عادة العرب فى ترك التكلف واختراع المعانى

(الخالدان) هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان، وخالد بن قيس بن المضلل بن مالك، قال الشاعر:

فقبلى مات الخالدان كلاهما ... عميدُ بنى جحوان وابنُ المضلل

(الخالديّان) هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم الشاعران المشهوران، قال الصابى:

أرى الشاعرين الخالديين نشّرا ... قصائد يفنى الدهرُ وهى تخلدُ
تنازعَ قومٌ فيهما وتناقضوا ... ومرّ جدالٌ بينهمْ وتردّدُ
فطائفةٌ قالتْ سعيدٌ مُقدم ... وطائفةٌ قالت لهم بل محمدُ
وصارا إلى حكمى فأصلحتُ بينهم ... وما قلتُ إلا بالتى هى أرشدُ
هما لاجتماع الفضل روحٌ مؤلف ... ومعناهما من حيث أُلفيت مفردُ
كما فرقدا الظلماء لما تشاكلا ... علاءً أشكا ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوجهما ما مثله فى اتفاقه ... وفردهما بين الكواكب أوحدُ
فقاموا على صلح وقام جميعهم ... رضياً وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

(السّببان) هما عند علماء العروض خفيف، وهو حرفان ثانيهما ساكن، وثقيل وهو حرفان متحركان

(الصادان) هما الصاحب بن عباد والصابى، قال أبو الحسن البندارى: أكتب أهل العصر الصادان

(الجرادتان) هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق واسمهما بعاد وثماد، وبهما ضرب المثل «ألحن من الجرادتين»(1)

(الصناعتان) هما عند الأدباء صناعة الشعر وصناعة النثر، وللبلغاء فيهما مؤلفات كثيرة، وأما الصنعتان فى قول الوراق يرثى أبا الحسين الجزار:

يا عيدنا الأضحى سقى ... صوبُ الغمام أبا الحسينِ
لو عاشَ فيك لقد غدا ... يشكو بوارَ الصنعتينِ

فالمراد بهما صنعة الجزارة لعدم من يتقدم إلى الله بالاضاحى، وصنعة الشعر لعدم الكرماء

(الفاصلتان) هما عند العروضيين صغرى، وهى ثلاثة أحرف متحركات على التوالى يعقبهن ساكن، وكبرى، وهى ما تجمع أربعة أحرف متحركة على التوالى يعقبهن ساكن

(رهين المحبسين) هو أبو العلاء المعرى، سمى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج منه مطلقاً، فأراد بأحد المحبسين البيت وبالآخر العمى

(ملكا الشعراء) هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى، قال الصاحب بن عباد: بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعنى امرأ القيس وأبا فراس

(فعلا المدح والذم) و (جمعا التصحيح) و (اجتماع الساكنين على حدة) و (اجتماع الساكنين على غير حدة) عند النحويين مشهورة(2)

محمد شفيق

(1) تفصيل خبرهما عند المحبي فى «جنى الجنتين» فى صفحة كبيرة
(2) وقد أسهب المحبي فى الكلام عليهما بما لا يوجد بعضه فى كثير من كتب النحو

صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ — ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

كان القرن الهجرى الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتهم على العقيدة، وتقوم شخصياتهم على العزائم الثابتة، والمبادئ الواضحة القوية. ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش، فى الصدر الأول من الدولة الأموية، لكان خليقاً به أن يضع فى طليعتهم بطلاً فذاً، كان لا ينفك شوكة فى جنب هذه الدولة، لسمو نفسه، وطمعه فى الخلافة، وعمله لتحقيق غرضه؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية؛ كان يطمع فى النجم، وكان يؤيد مطامعه عزم قوى، وبأس شديد، ولسان ذرب، وشرف واضح، وهمة قعساء، تعضدها الشهامة والبطولة، ولقد تمت له بكل هذا أدوات الرجولة. ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدى القرشى

أنجبه أبوان كريمان؛ أما أحدهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بنى أسد بن عبد العزى، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً فى الناس، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول، ومن ذوى المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم، ولا يبت فى أمر هام إلا بعد مشورتهم وبذل نصحهم؛ ولقد كانت له اليد الطولى فى نجدة الاسلام أيام كان المسلمون قلة، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة، فى فتح البلدان، ونشر الاسلام؛ أرسله أمير المؤمنين عمر إلى مصر نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحها، وقال له: إنى أرسلت اليك رجلاً بألف! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه، وبجيد أعماله أنه أهل لهذا التقدير العظيم. وفى الحق أن الزبير كان يعد فى الصف الأول بين أمجاد قريش، وذوى الثروة فيها، وقد رشحه مركزه ونباهة شأنه، وقوة شخصيته للخلافة؛ فكان أحد الستة الذين عهد اليهم ابن الخطاب، أن يختاروا خليفة منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه؛ أما أمه فحسب القارئ أن يعرف أنها أسماء بنت أبى بكر الصديق، وأخت عائشة أم المؤمنين، وكانت مع شرف أرومتها، ذات حزم وفكر ثاقب، كما كانت صلبة العود، أبية النفس، لها عزم جبار؛ فلو أنها لم تكن أنثى، لكانت رجلاً ولا كالرجال!!!

من هذه الأنساب الواضحة، والدوحة الباسقة، خرج عبد الله وورثه آباؤه وأقرباؤه جل الصفات الممتازة التى تغذى الطموح وتذكيه؛ وساعدت بيئته التى نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والاقدام فى نفسه، فامتاز بالفصاحة، وذلاقة اللسان، وقوة الحجة، حتى كان يعد من خير خطباء الاسلام؛ واشتهر كذلك فضله وزهده، وطول صيامه وقيامه، بين الخاصة والكافة. أما شجاعته فحدث عن الليث ولا حرج! فهو الذى يقول: «ما أبالى — إذا وجدت ثلثمائة من الرجال، يصبرون صبرى — لو أجلب بهم على أهل الأرض!!» ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول «إن عبد الله كان لا ينازع فى ثلاث: شجاعة، وبلاغة، وعبادة» وتلك عدة الرجولة الكاملة، وخاصة فى ذاك العصر

* * *

كان عبد الله أول مولود للمهاجرين بالمدينة عام الهجرة، فدرج بها، ونشأ فيها، حتى نال من التعليم المنتشر فى عصره ما أكسبه ثقافة دينية محضة، فعرف الكتابة والقراءة، على طريقة عصره، وحفظ الكتاب، وروى الأحاديث؛ واقتدى فى حياته وعبادته بمن كان يخالطهم ويعاشرهم من جلة الصحابة الكرام؛ فأثر هذا فى أخلاقه تأثيراً كبيراً، كان من ثماره تلك النزعة، نزعة العبادة وطول القيام والتهجد التى غلبت عليه فيما بعد. وكان أهم ما يجذب النظر اليه وهو صغير، جراءته النادرة، وميله إلى العناد، مع الثقة بنفسه، والاعتداد بقوته؛ «كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، فمر رجل فصاح بهم، ففروا ومشى عبد الله القهقرى (بظهره) ثم قال: يا صبيان اجعلونى أميركم، وشدوا بنا عليه فنهزمه!». ومر به عمر بن الخطاب، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون، ففروا وبقى هو؛ فقال له عمر: لماذا لم تفر مع رفاقك؟ فأجابه بجراءة وفصاحة: «لم أجرم فأخافك،

وليست الطريق ضيقة فأوسع لك » . هذه أمثلة صغيرة ، ولكنا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة ، فى زمن الطفولة والتنشئة ، ونستنبط منها أن للعظمة بوادر تلوح فى الحوادث الحقيرة ، كأنها ارهاصاتٌ لظواهر أخرى كبيرة ، تكون حينما تكون عظائم الأمور ، ومن هذه المُثُل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه ، وثقته بها ؛ ولا ريب أن الحبّة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فانها تشق الأرض شقاً ، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة !

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح ، ثقف صناعة الحرب ، ثم صحب الجيوش الغازية ، وأبلى فى العدوّ بلاء محمودَ الأثر ؛ روى الزبير بن بكّار « أنه - عبد الله - قتل بيده فى فتح افريقية أميرَ جيوش الروم » فأرسله عبد الله بن أبى سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان ، فلما سمع بشارته أعجبه كلامُه وشجاعةُ قلبه ، ثم سأله : أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ فأجابه : وما يمنعنى من ذلك ؟ ثم قام خطيباً ، وتدفّقت من فيه آياتُ البلاغة ، وأطنب فى وصف الفتوح ، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه ، وانفضّ الجمع ، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه ، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع فى وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول أبى عمرو بن عبيد : « كان عبد الله شهماً ذَكَراً ذا أنفَة ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والأمهات والخالات » . بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير أن يكون فى الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتىء عثمان يتفرس فى مخايله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه ... ومن ثمّ دبّ الطمع إلى قلبه فى طلب الخلافة لنفسه ، وأبقى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يألُ جهداً فى تحقيق هذا الحلم الجميل ، الذى يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة ؛ ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التى هى دار الخلافة ؟ ولِمَ لا يكون خليفة وجدُّه أبو بكر أولُ الخلفاء ؟ بمثل هذا تحدّث إلى نفسه ، ولكن أنَّى له هذا ، وفى القوم كثيرٌ ممن يكْفُونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامى ؟؟ وإذن فليرتقب سنوح الفرصة ، وليأخذ أهبته ربما تواتيه الظروف المسْعِدة ، عسى أن ينال ما يبتغيه ! ؛ وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلى الأمر من بعد عثمان ، فما هو أن بويع علىٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهلَ الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عُبيد الله ، وتحت راية خالته عائشة ، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة علىّ بالعراق ، وإنما زجها عبد الله ودفع بها فى هذا المأزق الحرج ، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التى ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وبعد أن هوّل ما بينها وبين على من الأحن القديمة ، فاستجابت طبيعة المرأة لما أُلقى اليها من دواعى الاغراء ، وأجمعت أمرها على النزال ، فقامت تخطب المسلمين ، تحرضهم على الانتقام لعثمان . . . . حتى كان ما كان يوم الجمل . روى المسعودى « أن عائشة قالت يوماً : إذا مرّ ابن عمر فأرُونيه ، فلما مرّ قالوا هذا ابن عمر ؛ فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهانى عن مسيرى إلى العراق ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعنى عبد الله بن الزبير)

يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفىّ لجيش عائشة على على ، وأنه كان قطبَ الرحا يوم الجمل ، والدافع له إلى هذا إنما هى نيتُه المستورة ، ورغبتُه المكبوتة فى أمر الخلافة

* * *

ثم تجرى الأمور على قدر ، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل على ، فيتمنى عبد الله أن لو كان معه جند يشدّ أزره أمام الخليفة الجديد ! ولكن أنى له ذلك الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة إحداهما بزعامة معاوية ، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبى طالب ، فلم يبق إلا الاذعان للواقع ، والحزم إذن فى المداورة لمن يبغى أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقّب من جديد لفرصة أخرى أمثلَ من هذه

بايع ابنُ الزبير معاوية ، وفى نفسه غصة ، ولقد كانت المطامع الكبيرة التى ينطوى عليها توقفه من معاوية موقف الند للند ، بل موقف المشاكس المناقض ، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به ، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة ، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى ،

يُروى أن معاوية حجّ سنة ، ثم رحل إلى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله ، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم فى هودجه ، فانتبه على وقع الحافر ، وقال من صاحب الفرس ؟ قال أنا عبد الله ! لو شئت يامعاوية قتلتك الآن ! ! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لستَ هناك ، ثم دار بينهما حوار طويل ، وكان مما قال عبد الله : أفعلتها يامعاوية ! أمَا إنا قد أعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به مادمت حياً ، ولكن ليعلمنّ مَن بعدك !!!

وفى هذا التهديد ماينم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله ، وإنما كان يكتمها إلى أجل ؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه ، فيقع بينهما فى مجلس الخلافة الجدالُ الشديد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، ولكن ابن الزبير كان يُفحم عمراً بالقول الرادع ، والحجة الدامغة . قال له مرة : « يا ابنَ العاص . إنما طال بى إلى الذُّرى ما لا يطول بك مثله : أنفٌ حمى ، وقلبٌ ذكى ، وصارم مشرفى ، فى تليد فارع ، وطريف مانع » . فعبد الله — كما قلنا — يطوى نفسه على طلب الخلافة ، ويستسرّ الأمر ، ولم يكن هذا ليخفى على أحد ، حتى على الخليفة نفسه ؛ وتتضح نيتُه ، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد . يروى الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً ، فقال معاوية مالى أراك مطرقاً إطراقَ الأفعوان فى أصول الشجر ؟ قال : « أنا أناديك ولا أُناجيك ؛ أخوك من صدَقَك ، ففكِّرْ فى الأمر قبل أن تندمَ » فهو لم يرض البيعة ليزيد ، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك ؛ وبهذه اللهجة الحازمة جابه خليفة المسلمين ، مع قدرته على الفتك به . ولقد حذّر معاوية ابنه يزيد منه ، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه ؛ قال لابنه : « إياك منه — ابن الزبير — إنه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجراءة عند إطلاقه ، فوجِّهْ اليه كلَّ جدك وعزمك ، وأمّا ما بعد ذلك فقد وطّأت لك الأمر ، وذللتُ لك أعناقَ المنابر . . . » . فمعاوية السياسى الخطير ، والداهية العظيم ، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبدَ الله ؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوبَ من جانبه ، لما يعهده فيه من قوة الشكيمة ، وصدق العزيمة ، وأنه لايستكين ولا يستخذى ، وأن صدرَه مطوىٌّ على أمور جسام

* * *

ويلحقُ معاوية بربه ، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية ، حيث يتولى يزيد الأمر ، ويميل إلى السرف فى المتع والشهوات ، وينغمس فى ملاذه ، حتى لينسيه ذلك أن يعنى بأمور المسلمين على الوجه الذى يرضى جمهرتهم فى سائر الأمصار ، ويضمن التفافهم حوله . حينئذ يغلى صدرُ عبد الله بمكنوناته ، فيتحفز ، وتزداد حرارة نفسه ، ثم ينطلق إلى منبر المدينة ، فيُلقى من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمةَ الثورة على الخليفة الأموى ؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة ، يسب فيها يزيد ، ويذكر مقابحه وعيوبه ، ثم يبلغ كلامُه مسامع يزيد ، فيؤدى هذا إلى وقعة الحرَّة ، التى انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه نقطة سوداء أثيمة ، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلف الأقطار الاسلامية عن الخلافة الأموية ، وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطلبه ؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد ، وكانت نزعته هذه تمتمد على عدة أمور : منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها ، فتدخلّه من هذا الاستخلاف طموح إلى الأمر ، ولذا كان يقول لئن أُصبتُ بأبى فلقد أصبت بأمى عثمان ؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل ، وكأنى به يقول لنفسه : لم لا أكون خليفةَ المسلمين ، والأمر لا يجرى على ميراث ولا يتبع قانوناً ؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية ، كما أراد معاوية أن يُقيم دولة سفيانية ؟ وقد نمى عنده هذه الخواطرَ ما أنسه فى نفسه من قوة الشخصية ، وشدة الاعتداد ، مع شرفه وجراءة قلبه . سأله ابن عباس مرة : بماذا تروم هذا الأمر ؟ قال بشرفى ! ، وقد وجد فى أهل الحجاز ضراماً لناره ، فهم يؤيدونه على الأموية ، ولذا اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية فى العدد القادم)

محمد حسنى عبد الرحمن

الشـــباب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقــدمة

مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المثل العليا وعزوفه عن حقيرات الأمور وإبائه الضيم للناس ولنفسه ، وبألا يقنع من الحياة بما يرى ، وبأن يحاول أن يبلغ من جليلات أمورها البعيد الدانى الى قلبه ونفسه ، وبأن يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها ، وأن يستنقذ الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ومأساة وضيعة الناظم

* * *

إن الشباب حديقة الأزمان عِطر الروائح ناصع الألوان
مثل الربيع إذا جلوت بسحره نَوْرَ الرُّبَى وأطايب البستان
روحٌ من الفردوس يُثمِل نَشْرُه تغدو الحياة به رياض جِنَان
ما راعه حكم الحِمَام وصَوْلُه إن الشباب من الخلود لَدَانى
لا اليأس يضنيه ولا جزع إذا كثر العثار وزلت القدمان
ينسى الذى يمضى لينشد مقبلاً مستأنفاً للعيش بالنسيان
ولو أن رفضا للقضاء يذيقه كأساً تذيب القلب من ذيفان
والشيب بالتسليم يكسر سمها حيث الشباب لِغِرّةِ الأسوان
وهو المغامر فى الحياة بنفسه نشوان لا من خمرة النشوان
نشوان من خمر الحياة وكأسها تغنيه عن نشوات بنت الحان
فكأنما فك الزمانُ قيودَه عنه وما للدهر من سلطان
ويصوغ من أحزانه نغماً له فكأنه خلوٌ من الأحزان
يسمو إلى الغرض البعيد طموحه ويرد خطب الدهر بالايمان
متحصن منــه بأمنع معقل متكفّل إيمانه بأمان
ويكاد من فرط الهناءة والهوى يدع الثرى ويهم بالطيران
والشيب يرسب فى الحضيض تخلفاً وترى الشباب كذروة الأكوان
ما أرّقته ذكرة من أشيب جم التردد خَطْوُهُ متدانى
وله على إدبار دَهْرٍ عزةٌ تنأى به عن ذلة وهوان
كِبْرُ الشباب ولا اعتدادُ مُسَوَّدٍ بالجاه والأجناد والأعوان
إن كان صعلوكاً فليس بخانع فكأنه ذو التاج والإيوان
إن العزيز هو العزيز على الصِّبى والشيب مهما عز ذل جَنَان
ذل الجَنَان لوهن جثمان ولا ذل كذل الوهن فى الأبدان
ورث المراح ذخيرةً لمبــذر خال الحياة رخيصة الأثمان
لَذَّاتُه دَيْنٌ يؤديه إذا حل المشيب وهد من جثمان
تتعادل اللذات فى ريعانه ولواعج للشيب فى ميزان
عهد الصراحة والمروءة والندى وتَأَلُّفِ الخلان بالخلان
عهد المحبة والأخاء وربما تُلفيهما فى القلب يمتزجان
عهد إذا طلب الكرى لم يُعْيِه وكرى المشيب مؤرِّق الأحزان
عهد الصِّبَى عهد المنى ، فإذا مضى لم يبق إلا مُرُّ سُؤْرِ دنان
وتكاد ذكراه إذا فات الصبى تحيى الصبى وترد غرب زمان
أطماعه عُلْوِيَّةٌ ، أحــلامه ذهبيةُ الآمال كالعقيان
عهد الصيال ولا صيال لأشيب هاب الحياة وصولة العدوان
والخطب أن يَهْوِى المشيب بصائل ما كان يخشى جولة الحدثان
حتى تراه بالحياة مُرَوَّعاً قلق الضلوع مؤرَّق الأجفان
والخوف طبع فى المشيب وقلما تلقى الشباب على غرار جبان
ولربما جمح الشباب بِسادر عَبَدَ الحياة عبادة الشيطان
ولربما عبد الحياة أخو النهى كعبادةِ لله والأوطان
قال المشيب ورُبَّ قولة صامت تعظ المصيخ له بغير لسان
ما سَرَّنى أنى فطنت وإننى والحلم والتبيان فى أكفان
ونسيت ما نَشْرُ الجنان وخلدُها وذكرت أن العيش مهلة فانى
ولقد علمت الآن ما عهد الصبى من بعد جهلى فيه والنسيان
والآن عالجت الحياة كما أرى لا ما أريد من البعيد الدانى
وعددت من سُنَن الحياة وحكمها ما يفعل الانسان بالانسان
فى حرصه أو قَسْوِهِ أو رِقِّهِ من فتكه بالروح والأبدان
وفزعت من ظُلْمِ الحياة وطالما ذَلَّلْتُ منها أيَّمَا طغيان
وتلوت فى التاريخ آيات الأسى مسطورةً بمدامع الأحزان
فعسى الشباب بمقبل من دهره يبلو الحياة بعزمة وأمانى
ويَسُنُّ للدنيا الوسيعة سُنَّةً لا سنة للحرص والحرمان
يستنقذ الأزمان من عبث الورى ويُطَهِّرُ الاحشاء من أضغان
ويُذِلُّ طاغوتَ الأمور فيحتذى شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن
ويُحيلُ ظلم العيش عدلاً سائغاً يُنْسَى به ما كان من عدوان

عبد الرحمن شكرى

ذكرى سعد

للأستاذ فخرى أبو السعود

تهفو لذكرك أنفسٌ ومشاعر … وتجود أفئـدةٌ له وخواطر
ويفيء شعرٌ من علائك قابسٌ … ويتيه فخراً فى مديحك شاعر
وعلوتَ أنت فما يزيدك مادحٌ … مجداً ولا يُعلى مكانك ذاكر
يا فخر مصر فى الشعوب على المدى … ما قام فيها بالرجال مُفاخر
كانت حياتك صفحةً كم سُطِّرت … فيها لمصرَ محامدٌ ومآثر
أنت الذى أعليتَ خافتَ صوتها … والخصم يُرعِد والخطوبُ بواسر
فتشدّقت بذكرك ألسنٌ وصحائف … وبذكر مصرَ عواصمٌ وحواضر
روّعتَ عنها غاصباً متجبراً … الموتُ من أسيافه متقاطر
ليثٌ يروعُ العالمين مهابةً … قد راعه من ليث مصر زماجر
لما رأوك تثير شعباً هامداً … وتمجّ سحرَ القول قالوا: ساحر
لو أنصفوا قالوا: نبىٌّ مرسل … الوحىُ يتبعُ خطوَه ويساير
أدّيتَ أمس رسالةً علويةً … العزُّ أولُ آيها والآخر
فى عهدك الزاهى الأغرّ — ولم يطل — … ينعت أمانٍ للبلاد زواهر
شرقت لمصر سيادةٌ كانت خبت … من عهد فرعون وعزٌّ باهر
وطلعتَ فى دست الرياسة قائداً … فى راحتيه أزمّةٌ ومصائر
ومثلتَ فى دار النيابة مدرهاً … شخصت إليه جوارحٌ ونواظر
أنّى حللتَ سما بمجدك منصبٌ … أن زانه سعد العظيمُ الكابر
استقبلت بك مصر سالفَ رفعةٍ … وبدت لمأمول النهوض بشائر
فأتت ثمانٍ بعد ذاك كأنها … دهرٌ على الوادى المروّع داهر
وُئدت بها الآمال فى إبّانها … وتلت سناك على البلاد دياجر
سرقت زمامَ الحكم فيها عصبةٌ … لا عاد عهدهم الأثيم الداثر
من كان قاعُ السجن مأوى مثلهم … عمرت محافلُ باسمهم ومنابر
أجرَوا على الأهلين ما لم يُجرِه … فى سالف الأحقاب غازٍ فاجر
وتحكّموا والأجنبىُّ مُظاهرٌ … لهمُ وجندُ الأجنبىِّ مُناصر
أوهى وأوهنُ ما رأوه شرائعٌ … عبثوا علانيةً بها ودساتر
أعداء مصرَ همُ كواشحُ سعدها … قد شفّهم حقدٌ عليه ساعر
نقموا عليه فى النفوس مكانةً … مسعاتهم عن دركها تتقاصر
ضنّوا على سعدٍ بتمثال وقد … ضمّت جوانحُ رسمَه وسرائر
فى موطنٍ كم فاز بالأنصاب فى … ساحاته علجٌ دخيل ماكر
وحمَوا بقيّته ضريحاً شاده … لرفاته الشعبُ الحفىُّ الشاكر
ولو استطاعوا فوق ذاك لما ثوى … فى مصره جسد الزعيم الطاهر
حسدٌ لعلياء الرئيس وفضله … حيّاً وميْتاً ما يزال يساور
إن يمنعوا عنه بناء حجارةٍ … فلهُ البناء المشمخرّ الفاخر
بنيانُ مجدٍ شاده بيمينه … هيهات يبلغه الحسودُ الخاسر
يمضون فى غدهم حطاماً مُغفلاً … وهو المخلّدُ فى العصور الظافر

فخرى أبو السعود

راتبى

للأستاذ محمود غنيم

ولى راتبٌ كالماء تحويه راحتى … فيفلتُ من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهرُ التفتُّ فلم أجد … إلى جانبى إلا غريماً مطالبا
فأمسيتُ أرجو نعيَه يومَ وضعه … وليس الذى يمضى من العمر آيبا
لعمرك ما فوق المكاتب راحةٌ … ولا تحتها كنز يدرُّ المكاسبا
قضيت حياتى بين دارى ومكتبى … فألفيتُ وجهَ العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندى كأنما … مضى العمرُ يوماً واحداً متعاقبا
فقل لشباب النيل قالةَ ناصحٍ … تعافُ له أخلاقه أن يواربا
إذا مصرُ لم ترفعْ قواعد مجدها … بساعدها لم تقض منه مآربا
وإن تكُ فى كل المرافق عالةً … على غيرنا عشنا بمصرَ أجانبا
أما من سبيل للحياة وغيرُنا … يرى سبلاً شتى لها ومذاهبا؟

محمود غنيم

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٧ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

أثرت فى نيتشه تعاليم شوبنهاور تأثيراً ظهر فى كتابه « نشأة المأساة » وعنه إقتبس قواعد كتابه . فاتخذ الارادة منه كشىء قائم بنفسه ؛ والذاتية فى الوجود مصدر كل ألم ، والموسيقى كلغة أصيلة للارادة . وفى الكتاب ذاته يرحب بشوبنهاور ويحييه تحية العبقرية ، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة ، ويحلل تأثيره وما يمكن لهذا التأثير أن يفعله فى الأرواح الحديثة . يقول : « إن انسان اليوم يتحرى عن ذاته ، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه المصادفات إلى معلم نافع فيتبعه ، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة ، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول إلى هذه « الذات » الغامضة المتوارية فى أحناء كل انسان » ، ولم يكن معلمه إلا شوبنهاور

شاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذى يتحرى عن الحقيقة فى كل ما حبر وسطر . وفى مدرسة شوبنهاور تعلم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هى بما فيها من قبح وما تنطوى عليه من ألم . وتعلم أن العبقرية يجب أن تناضل عصرها وأبناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها ، فهى حين تناضل الضعف وتحارب الرذيلة ، تحاول فى هذا كله أن تطهر ذاتها من كل الأوضار التى دخلت عليها من مجتمعها

وأخيراً وجد نيتشه فى شوبنهاور تعريفه لحياة البطولة ؛ (أما الحياة السعيدة فهى ضرب من المحال . ولكن الذى يمسح الانسان بمسحة الجلال هو أن يعتنق حياة البطولة ، وأن يقضى وجوداً تزينه الرجولة . لا تحفل بأن تكافأ على حياتك ، فخير ما تكافأ به نفسك أن تكون عظيما ظافراً ، ذكراك تبقى حية ، وأنت تمجد تمجيد الأبطال ؛ وارادتك تثب من خطر إلى خطر ، وتصعد من قدر إلى قدر ، حتى تتلاشى فى « النرفانا ») وهكذا خال نيتشه أنه وجد فى شوبنهاور روح « ديونيزيوس » التى تعتمد على الارادة وحدها

الغزوة الرابعة

وهناك صداقته القديمة للموسيقى الفنان « ريشارد ڤاجنر » هذه الصداقة التى يعود عهدها إلى أيام الحداثة ، ما عمرها إلا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجاباً تسامى عن اعجاب فنان بفنان إلى امتزاج انسان بانسان ؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحاً طويلاً من الزمن ، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة ؛ وظلا ثابتين على هذه الصداقة حتى شاءت الظروف أن تفرق بينهما ؛ فمضى « ڤاجنر » إلى « بايروت » حيث أسس فيها داراً للتمثيل ، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب ؛ وفى احدى مطالعاته الأخيرة وصف « ڤاجنر » كبطل من أبطال العبقرية على النحو الذى ذهب اليه فى معلمه « شوبنهاور » ، ولكن هذا أدى رسالته عن طريق الفلسفة ، وذاك يؤديها عن طريق الفن بأسلوب حى يمازجه شىء من الغموض ، هو ذلك العبقرى « الديونيزوسى » الذى لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة فى نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص ؛ فهو عبقرى جمع اليه جملة فنون متصاحبة : فيه براعة الممثل ، وعبقرية الموسيقى ، وسمو الشعر ؛ تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشى حسه ، وقد كان هدف « ڤاجنر » من افتتاحه لدار التمثيل أن يخلق درامة موسيقية يُحيى بها عهد المأساة عند اليونان ؛ وإن تحقيق هذه الدرامة لَيُعد أول محاولة من نوعها فى تاريخ أدب الغرب الحديث ؛ لأنها محاولة لا ترمى فى الحقيقة إلا إلى احياء العبقرية اليونانية الهامدة ، ولو أن هذا العمل قُدر له الانتصار والبقاء ، لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد فى تاريخ الانسانية

ولكن نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً إلى أهله ، وقد تراكم عليه اليأس والضجر ، فجمته الأيام فى أحلام صباه ، وانتصر فيه اعجابه بفاجنر على كل شىء

هذا نيتشه الذى كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكرى الذى قهره عليه سلطة هذين المعلمين ، وهو أحد

المتعصبين لأفكارهما وآرائهما ، وأحد العاملين على بثها ، لأنهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى . ولكن نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما . وقد عرفنا كيف انفصل عن « شوبنهاور » في مسائل واضحة من مذهبه . فقد أصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية ، وفي الخاصيلت التي يعزوها صاحبها إلى الارادة ، وفي الارادة التي يزعم صاحبها أنها كنه أكناه الكون ، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه . وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو إليـه شوبنهاور ، فأبى الخضوع والاستسلام ورفض الجنوح للسكون الفلسفي . وبهذا قضى على فلسفة الحكمة « الراكدة » اللابسة لباس اليأس . هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها . ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل . ويمدح الحكمة المزوجة بالمأساة ، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة ، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه ، هذه الحقوق التي تخول الأنسان حق التخيل وحق التوهم

ولم يكن حكم نيتشه على « ڤاجنر » أقل جرأة وقسوة . فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال ، ويظهر ما يطغى على روحـه من روح الفوضى والاضطراب . ويقارن بينه وبين « باخ وبيتهوڤن » اللذين هما أصفى مزاجاً منه . وأصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقي والشاعر والمفكر . وأخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة . منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحية والذهول البوذي ، وحبه للأشياء الغريبة . أصبح في شك من أي تأثير يحمله « ڤاجنر » إلى الشعب الألماني

هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى « ڤاجنر » المثل الأسمى قد انقلب عليها وجحد بها ، فما هي علة هذا الانقلاب ؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال أثناء تحدثه عن شوبنهاور « إننا نخاله فيلسوفاً : ثم نرى : إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فان هـذه الملحوظات لا يشوبها خلل . لأن منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها ، فهو كفيلسوف يعلّم قد يكون مخطئاً مائة مرة . ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة ، مرتدية أزياء الحقيقة . . . وههنا مجال النظر والتأمل ؛ ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة ، هـذا الشيء هو الذي يخلد الفلسفة ويولد العبقرية » . وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين ، فهو قد مال إليهما بآثارهما والتعصب لها . ثم انقلب هذا الميل والتعصب إلى الآثار إلى إعجاب مجرد بالشخصية ، فأحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما . ثم عمل على أن يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة أو يشوش أسبابها ، ولكنه اضطر إلى نقد مالا يوائم فكرته نقداً عاماً ، وأخيراً اقتربت تلك الساعة التي وجد فيها أن الفواصل التي تفصله عنهما هي أكبر من أن تُخنق

وألفى أن في سكوته عنها خيانة لنفسه . فبدأ ينقد آثارهما ويظهر أخطاءها . وهو في كل ذلك لا يحاول أن يفهمهما بحقيقتهما ولكنه عامل على تفهم نفسه بالاتصال بهما ؛ وهو بدلاً من أن يصور نفسـه بصورتها رأيناه قد حوّل صورتهما إلى صورته ، وأذاب ذاتهما في ذاته ، كالبحر الذي يحول فيه الفرات أجاجاً . وصورة « شوبنهاور » التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقيـة مشابهة ، وإنما هي صورة للمثل الأعلى للفيلسوف « التراجيدي » كما يتخيلها نيتشه . وهكذا قل في صورة « ڤاجنر » . وهو دائماً لا يعبر في كل ما يصف ويصور إلا عن حلمه الباطن

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طروادة
التفاحة المشئومة
للأستاذ دريني خشبة

نشـيد الزمان !

وقصيدة الماضي !

وغنـاء السلف !

وحُداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد ؛ رُكبانها الآلهة ، وأبوللو وكيوبيد وَملؤهما ولِدانها المخلّدون !

***

أنشـد يا هوميروس !

واملأ الأحقاب موسيقى !

واللانهاية جمالاً وسحراً !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والانسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دوىّ العصر ، فهى أبداً تحنّ إلى سكون الماضى !

***

لن تصمت يا هومـيروس !

فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك !

والقلوب هى القـلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً ، فلقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً ؛ ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين !

— ١ —

رآها تخطر فوق الثبج ، وتميس على رؤوس الموج ؛ فهام بها ، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمپ ، فكان يقضى عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة ، ويفتش في كل موجة عن حبيبته « ذيتيس » . . . عروس الماء الفاتنة ، « ذات القدمين الفضيتين[1] » ، ابنة نريوس ، رب الأعماق ؛ الثاوى مع زوجته الصالحة دوريس ، في قصور المرجان . . . هناك . . . هناك تحت العُباب . . .

ورقت له الفتاة ، حين علمت أنه رب الأرباب ، وسيد آلهة الأولمب ، زيوس العظيم ، فوصلت بحبالها حباله ، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة ، تصاول حيرا أم مارس وڤلكان ، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبوللو ، وتدل على ديون أم ڤينوس . . . وعلى سائر ربات الأولمب !

وابتسم لهما الزمان ، وتساقيا كؤوس الغرام دهاقاً ؛ وأوشك الاله الأكبر أن يبنى بها لولا وسواس خامر قلبه ، فآثر أن يستشير ربات الأقدار[2] قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشىء

ولقد شاء حسن طالع الاله الأكبر أن يفعل ؛ إذ أخبرنه أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب ، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه ؛ أو على الأقل ، تكسف شمس عظمته شمس أبيه ، فيعيش إلى جانبه إمّعة لاشأن له . وهوّلن لحدثنه عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع ، ويستحر القتال ، بين شعبه « الأغريق » وجيرانهم « الطروادين » . . .

(١) العبارة من هومير

(٢) زيوس هو صاحب الأمر والنهى على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية ، ماعدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات : (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء ، (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه المتين والواهى ، (٣) أتروپوس كبراهن وهى تقطع الحبل جزءاً لجزء أ بمقص كبير

وخفق قلب زيوس، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن (1) بعد فظائع وأهوال، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه

لذلك قصر هواه، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي أن تتزوج ذيتيس من بليوس ملك فيتيا، الذي كان هو الآخر مولعاً بها، مشغوفاً بجمالها حباً . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبنى ابنته على بشريّ هالك ولو كان ملكا. بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر، وقبل بليوس لابنته بعلاً . . .

وحزنت ذيتيس، وانعكفت في غرفتها المرصعة باللآلىء تشكو وتبكي؛ فلما علم زيوس ما حل بها، زارها من فوره، وطفق يلاطفها ويترضاها، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك: «على أن تحضر بنفسك، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف، وليعزف أبوللو على موسيقاه، ولترقص ديانا ربة القمر . . .»

— ٢ —

ودقّت البشائر، واضطرب بطن اليم، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط، ووقفت الأوسيانيد والنيريبيد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحيي الضيوف الأعزاء، الأوداء الأحباء، وتغني وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الموسيقى الشجية

وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية. أبوللو!! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة، فتقفز الحجارة مترنحةً من الطرب إلى مكانها من الأسوار!!

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضي، وتعلو في السماء، أم ديانا الهيفاء ترقص في القلوب والأحشاء!!

ونهض الجميع إلى المقصف الفاخر الذي تفننت في تنويع آكاله وأشرباته أيدٍ إلهية ماهرة، فأكلوا ما لذ، وشربوا ما طاب، وأخذوا في سمر جميل. وكان هرمز يرسل نكاته

(1) حرب طويلة لايتسع هذا المكان من الرسالة للتحدث عنها، ويرجع إليها في الميثولوجيا من شاء

الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك. وتُدوّي الأكف بالتصفيق . !

وبينما الآلهة في قصفهم، لا يفكر أحدهم إلا في هناء العروسين، إذا بالربّة الخصيم أريس (1) تظهر فجأةً في وسط الجماعة، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر، وتنفثان سم البغض، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خصلٌ ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة، وعلى صدغيها الأرجوانيين يخشخش عقربان منكران لكل منهما ذُنابَى يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا

ظهرت إريس غاضبة حانقة، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التي أرسلت إلى الأرباب جميعاً. وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وَطِئته قدماها. أليست هي ربة الخصام، النافخة في نار العداوة التي تتضرم منذ الأزل في الجوانح والقلوب؟

لكنها لم تنس لهم هذا الإهمال، بل أقبلت، وهي تتميّز من الغيظ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم

ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفةً حين رأوا إليها تُقلّب فيهم ناظريها المشتعلين، غير أنهم اطمأنوا قليلاً، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تُفّاحةً كبيرة من الذهب، نُقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة: «للأجمل!»

— ٣ —

باريس:

درجت عادة القدماء أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجه من توّه إلى الهيكل يقدم القرابين ويزف الهدْى، ثم يستوحي المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء، ليأخذ للأمر أهبته، وليعد لكل شيء عدته

فلما وضعت هيكيوبا، ملكة طروادة، غلامها باريس، حمله أبوه الملك، بريام، إلى هيكل أبوللو، ليرى رأي الإله فيه

واربدّ وجه الملك الشيخ، وتغضّنت أساريره، حين قال له كاهن المعبد: إن ولده سيكون كارثةً على قومه وعلى بلده!

(1) تسمى أيضاً دسكورديا (ومعناها نزاع) أو إيتيه

يأتى من الاثم ما يجر إلى قتل آله وبنى جلدته ، ويفضى إلى سقوط طروادة فى يد أعدائها

وتحدث بريام إلى هيكيوبا فى ذلك ، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء ، فوق واحدةٍ من جنبات الجبل ، ينوشه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فعلتهما الشنعاء ! ولكن القضاء ينبغى أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به ، واتخذه لنفسه ولداً ؛ ثم سهر عليه واعتنى به ، ونشَّأه تنشئة الفروسية التى كانت أحب مزاولات الحياة فى هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً ، جميلاً ممشوقاً ، فعمل مع الراعى الذى أنقذه . وكان مولعاً بالبحر ، تشوقه أمواجه ، وتفتنه أواذيّه ، فكان يختلف إليه ريثما تفئ الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج . وبدت له إحدى عرائس الماء – إيونونيه – وكانت قسيمةً وسيمة ، فهويها وعلقها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شيء عليه فى هذه الحياة

وعشقته إيونونيه ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليل برد الشفاء وا أسفاه !

لقد قضت ربات الأقدار – كلوتو وأختاها – ألا يدوم هذا الحب طويلا (١) !

– ٤ –

اجتمع الغانيات حول التفاحة كلٌ تريدها لنفسها ، وكل تدعى أنها أجمل من فى الحفل جميعاً . . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت حيرا ومينرفا وفينوس ، ميممات شطر الجهة التى يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة . . .

– « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وآ تركنّ إلى قلب الإله الأكبر ، أنا ، أحقكن بهذه التفاحة العلوية ، وأعرفكن بقدرها . . . سأضمها إلى تفاحات هسبريا (٢) ، فهى بهن أليق ، وهن عليها أحفظ . . . سيماقمها مع أخواتها الثلاث لتزداد بها حداثقهن . . . »

– « أنت تفاخرين بملك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وأبهة الموعظة الحسنة ، وجلال الرأى السديد ؟ بل أنا . . . مينرفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة . . . »

– « فيم تختصمان يا أختىّ العزيزتين ؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هى للأجمل ؟ أو لست أنا . . . فينوس جميعاً . . . ربة الجمال ؟ لِمَ تربعت على عرش الفتنة إذن ؟ هى لى من دونكما ! . . . »

واختلف الآلهة ، وساد هرج ومرج ، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يفوه بكلمةٍ يفضل بها إحدى الرَّبات الثلاث حتى لا يقع فى سخط الأخريين ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما . . .

وتفرق الجمع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتلبَّثن به ، واتفقْن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن فى أمر التفاحة ، وتعاهدْن ، بالايمان المغلظة ، أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرْن طويلاً ؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلىء والمرجان ، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لُقية إيريس ! !

وكانت عروس فتانةٌ من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها فى الجهـــة التى جلست بها الربات يتربصن . . .

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مُستراد باريس الذى يُريح فيه قُطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتباثان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشائه ويغنى ؛ فزلزل قلب إيونونيه ، وهلعت نفسها ، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذى انتهى اليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد ذاعت وشاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ؛ فلما

(١) نظم الشاعر الانجليزى الغنائى الفرد ألفرد تنيسون مأساة ايونونيه نظماً رائعاً ، وهى من خير شعره ويجدها القارئ فى ديوانه ص ٧٤ – ٨١ طبعة كلنز

(٢) راجع قصص « هرقل » فى الأعداد السابقة من « الرسالة »

عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات فى هذه الناحية من الجبل من أجله ، اضطربت أيما اضطراب ، وقلقت على باريس أيما قلق . لأنه وحده هو الذى يجوز بهذا الطريق ، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان . وكان مصـدر قلقها هو ماعساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة . . .

— ٥ —

وصاحت حيرا : « قف أيها الراعى الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه . تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأ كثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً ، وأنا ـ حيرا ـ مليكة الأولمب وذات الحوْل والطوْل فيه ، وربة التاج والصولجان ، وصاحبة القوة والسلطان ، وآثر أزواج زبك ، كبير الآلهة ؛ وأحبهن إليه . . أنا ـ حيرا ذات الجبروت ـ وولدى مارْس إله الحرب ، ورب الطعن والضرب ، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى قليكان كذلك ، إذا شئت سَرَد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم ، لا يُشق لك غبار ، ولا يجرى معك فى مضمار ! إذا خضت حرباً حماك مارْس وأيدك ، ونصرك ڤلـكان وآزرك . . . ألست ترى إذن أيها الراعى الجميـل أننى أحق من هاتين بتلك التفاحة ؟ أنا ـ حيرا مليكة الأولمب ـ سأمنحك الثروة التى لا تفنى ، والسلطان الذى لا يبيد . . . سأجعلك ملك هذه الديار التى ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج ، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التى تحياها . . . أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهـذا القطيع الذى يثغو . . . »

وصمتت حيرا . . . وجعل باريس يقلب فى التفاحة ناظريه ، وفى قلبه مما رأى وسمع فرَقٌ عظيم . . .

لقد كانت حيرا تختال فى ثوبها الأولمبى الموشى ، وكان طاووسها الجميل ـ الذى اتخذته منذ الأزل رمزاً لها ـ يتشبث بناصيتها ويميس ، فيزيدها جلالاً وكبرياء

ـ وأوشك الفتى الراعى أن يقدم التفاحة لحيرا ، لولا أن صاحت به ميترڤا :

ـ « على رسلك أيها الشاب . . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا . . . أنا لن أزخرف عليك علاك ولا سـلطان ، فأنت أعقل من أن تنخـدع للعرض الزائل ، وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك ، وهواك على قلبك . . . أنا مينرڤا ربة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس . . . سأمنحك السداد ، وسأكشف لك حجب الجهالة ، وسـيضيء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس ، وأعلم الناس ، وأحكم الناس . . . »

وسكتت مينرڤا ؛ وسُمع هاتف من جهـة البحر يصيح : « باريس ! أعطها لمينرڤا يا باريس . . . » ؛ وكانت إيونونيه ما فى ذلك شك ! !

وكاد باريس يلقى بالتفاحة فى يدى مينرڤا . . . لولا أن تقدمت ڤينوس الصنّاع . . . ڤينوس الحلوة . . . ڤينوس الساحرة . . . ڤينوس ذات الدل . . . ڤينوس التى تكفى غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجى لاذلال ألف قلب . . . . . . لولا أن تقدمت ڤينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها . . . . . . تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم ، وتتبرّج وتهتز ، وتشد هذا الثدى وتثنى هذه الذراع ، وتميل برأسها الذى كله خدود وعيون وأصداغ . . . تقدمت فينوس تبسم للراعى الجميل عن فم حلو رقيق ، تتلألأ ثناياه ، ويتضوع عبير خمره ، وقالت : « باريس ! هل لك عينان تعرفان الغزل ، وقلب يعرف الحب ؟ . . . باريس ! أنا فينوس التى صليت لها بالأمس ، والتمست منها التوفيق . . . ها أنا ذى يا باريس . . . أليست التفاحة للأجمل ! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة فى العالم ؟ ستكون زوجتك مثلى ، تغمرك بجمال لانهائى لاحدود له ، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها فى جنة . . . قبل . . . نظرات حلوة . . . خدٌّ مورّد . . . أهدابٌ كظلال الخلد . . . ساق ملتفة عبـلة . . . جسم ممشوق طوال . . . جيد مهتز ناضج . . . ثدى مثمر يتحلّب نعيما . . . . . . هاتها يا باريس . . . هاتها يا حبيبى . . . »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها ، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة فى يديها الجميلتين ، برغم الصيحات المتتالية التى كانت تهتف به من البحر : « لا يا باريس . . . لا يا باريس . . . إعطها لمينرفا يا باريس . . . ! »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا ، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه . . . ولم يلق إيونونيه بعدها ! !

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

نصوص سريانية عن العلوم الاسلامية فى بغداد

صدرت أخيراً فى انكلترا موسوعة نفيسة للعلوم العربية وأحوالها فى بغداد فى أوائل القرن التاسع الميلادى (أوائل القرن الثالث الهجرى) وعنوانها : « موسوعة للعلوم الفلسفية والطبيعية كما كانت تدرس فى بغداد حوالى سنة ٨١٧ م » أو « كتاب كنوز أيوب الرهاوى » ، وقد نشرت هذه الموسوعة بالسريانية وهو نصها الأصلى مقرونة بترجمة انكليزية وملاحظات نقدية بقلم العلامة الشهير الدكتور منجانا صاحب مكتبة « رينولدز » الشهيرة التى تحتوى طائفة كبيرة من أنفس المخطوطات الشرقية ؛ وقد سبق أن نشر الدكتور منجانا بعض هذه النصوص والتراجم نقلا عن المخطوطات السريانية والجرشونية التى تحتويها مكتبته . وهو يقول لنا فى مقدمته إن هذا الجزء هو المجلد الأول فى سلسلة جديدة علمية يراد إصدارها

وأهمية النصوص السريانية فى تفهم أحوال العلوم الاسلامية الأولى تبدو جلية متى ذكرنا أن العرب حينما بدأوا ترجمة العلوم اليونانية ، استعانوا فى نقلها بالسريانية ، فكانت تنقل أولاً إلى السريانية ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية ، وكان أعظم أولئك المترجمين كما هو معروف حنين بن اسحاق ، أما أيوب الرهاوى هذا صاحب « الكنوز » التى أصدرها الدكتور منجانا ، فهو من أشهر المترجمين الذين نقلوا المؤلفات اليونانيـة العلمية إلى السريانية ، وقد ذكره ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » ، وعرفه العرب بالأخص من تراجمه للكتب اليونانيـة الطبية ؛ وقد انتفع حنين بن اسحاق بترجمة الرهاوى لمؤلفات جالينوس ، وترجم الرهاوى أيضاً بعض مؤلفات أرسطو ، وألف رسالة دينية عنوانها « كتاب الايمان » . وقد ولد هذا العلامة فى مدينة إذيسا أو (الرها) حوالى سنة ٧٦٠ م وتوفى حوالى سنة ٨٤٠ ولا شك أن المجلد الأول الذى أصدره الدكتور منجانا من النصوص السريانية التى اتخذت واسطة لنقل العلوم اليونانية إلى العربية سيكون له شأن يذكر فى درس الحركة العلمية الاسلامية فى بغداد فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أعنى فى أزهر عصور الدولة العباسية

لجنة الفتاوى فى الأزهر والمعاهد الدينية

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن رسائل الاستفتاء عن مختلف المسائل الفقهية تنثال كل يوم على الرياسة الدينية من مصر ومن جميع الأقطار الاسلامية فأراد أن يجعل لهذا التثقيف المثمر جهة خاصة تتولى الفتوى على هـذه الأسئلة وترجمتها إلى لغة المستفتى ثم عرضها على الرياسة العليا . فأصدر قراراً بتأليف لجنة تسمى « لجنة الفتاوى فى الأزهر والمعاهد الدينية » وأسند رياستها إلى العالم الجليل الأستاذ حسين والى عضو هيئة كبار العلماء ، وعضو مجمع اللغة العربية الملكى . وجعل أعضاءها أحد عشر عضواً يمثلون المذاهب الأربعة المشهورة ، وسيكون دستورها فى الفتوى أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التى يريد الاجابة على مقتضاها . فاذا لم يعين المستفتى مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية

العارية الدولية للكتب

اجتمع فى شهر مايو الماضى المؤتمر الدولى الثانى للمكتبات وفنونها بمدريد واشبيلية وسلمنكا وبرشلونه ، وكان الغرض من اجتماعه إيجاد اتحاد أدبى بين الدول لنشر العلوم والثقافة بالتعاون بين مكتبات العالم . وكان من أهم ما نظر فيه مسألة « العارية الدولية للكتب » فاتخـذ فيها قراراً ننقل خلاصته عن تقرير المندوب المصرى فيما يلى :

١ ــ أن تكون المعاملة بين الدول فى مسألة العارية الدولية للكتب على قاعدة المثل فى أوسع معانيها

٢ ـ أن تتعهد المكتبة المستعيرة بضمان كل ما ينشأ من ضياع أو تلف للكتب التى ترسل إليها

٣ ـ أن تتعهد المكتبة المستعيرة بأن تتحمل كل نفقات الارسال والتأمين

٤ ـ أن تنفذ عملية الاستعارة بأسهل الطرق وأسرعها وبأقل النفقات الممكنة

٥ ـ أن تكون الاستعارة بين الدول بطريقة مباشرة

٦ ـ يجب على كل مكتبة قبل أن تطلب مؤلفات من الخارج أن تتأكد من عدم وجود هذه المؤلفات فى بلادها

٧ ـ يحسن أن يعين فى كل مكتبة موظف خاص باستعارة الكتب وهو الذى يرسل ويتسلم الكتب المطلوب استعارتها

٨ ـ وعلى المكاتب المنضمة إلى الاتحاد أن تعمل إحصائية عن الكتب التى أعارتها أو استعارتها كل عام

الانكليز واللغات الأجنبية

المعروف عن الانكليز أنهم أقل الشعوب الأوربية ميلا إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد يرجع ذلك من وجوه كثيرة إلى انتشار لغتهم فى كثير من البلاد والأمم التى يبسطون عليها سيادتهم أونفوذهم ؛ ولكن الواقع أن الانكليزى يرغب بطبيعته عن بذل أى جهد لتعلم لغة أخرى ؛ بيد أنه لوحظ منذ بداية هذا القرن أن الشباب الانكليزى قد أخذ يميل نوعاً إلى تعلم لغة أجنبية ، وأنه يؤثر الفرنسية فى ذلك على كل لغة أخرى ، وتليها اللغة الألمانية ؛ وقد أذاع أحد كبار الأساتذة الفرنسيين الذين يتولون التدريس فى جامعة لندن أخيراً تقريراً عن تقدم اللغة الفرنسية فى انكلترا وفيه يقول إنها أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة التى تدرس فى المدارس الابتدائية الممتازة فى انكلترا وعددها نحو خمسمائة مدرسة ؛ وأنه يوجد زهاء خمسين ألفاً من الشبان الانكليز يتعلمون الفرنسية فى المدارس الليلية ، وعشرين ألفاً يتعلمون الألمانية ، وتسعة آلاف يتعلمون الأسبانية . ويغلب تعلم الفرنسية فى المدارس الابتدائيـة الحرة وفى المدارس الثانوية . ويختار الفرنسية كلغة أجنبية إضافية نحو تسعين فى المائة من تلاميذ هذه المدارس . غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الطلبة بعد تعلم الفرنسية فى المدارس لايجرؤون على التكلم بها بعد تخرجهم ، لأنهم يجدون صعوبة كبيرة فى التحدث بها سواء من جهة النطق أو النحو ؛ ويلاحظ من جهة أخرى أنهم لا يقرأون بها سوى القليل من الكتب والنشرات السخيفة . وإلى جانب ذلك يتقدم تعلم اللغة الألمانية خصوصاً فى الأقسام العلمية للجامعات

جائزة نوبل للسلام

من المعروف أن معهد نوبل يخصص جائزة سنوية للسلام يمنحها للشخص أو الأشخاص الذين يقدمون أعظم خدمات لقضية السلام العالمى . وقد منحت هذه الجائزة فى العام الماضى للمستر ارثور هندرسون الوزير الانكليزى السابق ورئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى الذى اشتهر بمقالاته وكتبه لتأييد قضية السلام . وفى أنباء (أوسلو) الأخيرة أنهم يرشحون لنيل جائزة السلام عن سنة ١٩٣٥ ، المسيو مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والهير كارل فون اسيوتسكى . والأول معروف بحبه وخدماته للسلام ، وأما الثانى فهو كاتب ألمانى ذو نزعة ديموقراطية ، كان يحرر صحيفة « دى فلث بينه » (المسرح العالمى) ، وقد اشتهر بحملاته على الجمعيات الوطنية النازية السرية . فلما تولى النازى الحكم فى يناير سنة ١٩٣٣ ، قبض عليه وأودع فى معسكر الاعتقال . ولا يزال معتقلاً حتى اليوم

مشروع أدبى ضخم

وضع أحد كبار الناشرين فى السويد مشروع مباراة أدبية ضخمة ، خلاصتها أن يتقدم اثنا عشر ناشراً يمثلون كبرى الدول الأوربية ، ويقدم كل ناشر منهم أنفس ما لديه من مخطوطات كبار المؤلفين المعدة للنشر إلى لجنة من المحكمين من أكابر المفكرين ؛ وتنتخب كل لجنة مما يقدم اليها أنفس وأجمل رواية ؛ ثم ترسل الروايات الاثنتا عشرة المختارة إلى السويد وتعرض هنالك على لجنة عليا من المحكمين ، وهذه تختار أنفس وأجمل رواية من الجميع ؛ ويمنح مؤلف هذه القصة المختارة مكافأة مالية قدرها ثلثمائة ألف فرنك (نحو أربعة آلاف جنيه) . ثم تترجم إلى معظم اللغات الحية وتنشر فى مختلف بلاد العالم ؛ ويقدر واضع المشروع أنه يمكن أن يجتنى من تنفيذه نحو مليون فرنك . بيد أن المهم فى ذلك كله هو ما يصيب المؤلف الذى يسعده الحظ بأن تفوز قصته بالجائزة الكبرى ، فهو يغدو بالحصول عليها من أصحاب الثراء ؟

الكتب

روض الشقيق في الجزل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان

١٢٨٤ — ١٣٤٦ هـ

للأستاذ محمد بك كرد علي

بيت الأمراء أرسلان فى لبنان عريق فى النسب والأدب ، وأشهرهم فى هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من انبغتهم الشام من أرباب الأقلام ، ويليه فى الشهرة الأدبية شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هذا الديوان . طبعه فى دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضى ، وعلق عليه حواشى وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التى تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة ١٣ هـ . وكان قد حضر وقعة أجنادين ، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح ، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة ٤٥ هـ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه ، وشهد وقعة قِنَّسرين . وأرومة هذا البيت ترتقى بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى . وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان ، وهو فى ٢٧٠ صفحة متوسطة القطع ، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والعدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب ، وردّ على بعض المؤرخين الذين أغفلوا لمقاصد حزبية ذكر آل أرسلان فى بعض المواضع والمواقع ، وقديماً قالوا : الناس مصدّقون بأنسابهم

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه بروض الشقيق ، فى الجَزْل الرقيق ، وذلك لجمعه بين متانة التركيب ، ورقة الشعور ؛ وفى لفظة الشقيق من التورية مالا يخفى . وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد ، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله : « لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً ، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نِداً ، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى الثقافة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المهاتنة . فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت عليهم أجارعها ، وصارت مَلَكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رؤوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريف البضائع ، وأن يضيفوا إلى الارث العُدْمُلى Archaïque الكريم حديث البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية ، لأجل تمام المقصد واجتناب الهجنة ، أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها .. »

وها كم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير فى ضنكه ويحث الموسر على إعانته ، « وهى قصيدة فذة فى بابها فى وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم » :

رأيت سليل الفقر يعمل فى الثرى ... مكباً على محراثه يتلهف
يخدُّ أديم الأرض خداً كأنه ... له قِبَل الغبراء ثار مخاف
كأنى به نادته للحرب فاغتدى ... يكرُّ عليها بالحديد ويعطف
كأنى به إذ فرق الترب والحصى ... يفتش هل فى باطن الأرض منصف
كأنى به إذ خط فى الأرض قبره ... يهمُّ على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذى ليس ناهضاً ... به بشر غض البنان مهفهف
جبين بعرفض الصبيب مضمَّخ ... وشَعر بملتصّ الغبار مغاف
وجِيد خفوق الأخدعين كأنما ... تبينت من أوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه ... إذا قرّ منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت ... أضالعه فى زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه ... حسيسُ هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت ... تصافح منه جلده حين تعصف

وأثبت حَمْىُ الشمس في أم رأسه ... نبالاً فراش العظم منها منقف
تبطن منثور الغبـار جفونه ... فضرّج منهـا مقلة تتحسف
كأن حماة الشوك في ذيل برده ... طراز خواه العبقرى المفوّف
عدُّ إلى الجبار كفاً تكدحت ... أناملها والله بالعبـد أرأف

ومنها :

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى ... وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هى الفقر ما أدراك ما الفقر إنما ... لهـات الردى منـه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى ... فلا الرغد ميسور ولا العمر ينزف
بكيتك يا خلوَ اليدين بأدمعى ... فأنت صريع النائبات المذفف
يروح كثير المال يسحب ذيله ... وأنت المعنّى يا فقير المكلف
ألست الذى شاد الحصون بعزمه ... وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر فى اللج ينثني ... ومشّى قطار النار فى البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرة ... وحاك لهم موشـيـة تتغضف
بلى إن من هان العسير بكده ... على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه ... ولامسّ كفيه القضيب المعقف
أبى الحق أن يشقى الفقير بعيشه ... وذو المال فى شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه ... غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما فى كبود العالمين هوادةٌ ... ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة ... يحثُّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق ... ولو هزَّ فوديه النصيح المعنف
أراه إذا ما نعّم الرغد جسمه ... غدا قلبـه يقسو لديه ويصلف
اليكم بنى غبراءَ تدمى عيونهم ... وليس لهم إلا المياسير مسعف
يعدون نحو المحسنينَ أكفهم ... وما يستوى المكفىُّ والمتكفف
سألت عزيز المال حين يفوتهم ... من الرمل تحثوا أم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى اليهم فريضـةٌ ... وفى ذلك الآيات لا تتحرف
فان طلبوا الانصاف قبل سماحة ... ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف العسر عنهم فانما ... أخو الضر عسى ضارياً حين يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى ... فيبدر منهم بادر لا يكفكف
فان لم ينالوا بالهوادة حقهم ... ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه ... فان الخطاب العذب نعم المثقف
لكم عبرة فى الغرب من كل فتنة ... تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب ... لما قام منهم قائم متطرف

وفى الديوان كسائر الدواوين الشعرية أماديح وقصائد فى التهنئات ، ومقاطيع فى الغزل والنسيب ، وكلها من الشعر الجزل . رحم الله ناظم عقودها وأمد فى حياة ناشرها

إلى صديقى العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شق علىّ يا أخى أن تلقى دلوك فى الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذى ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، فى فن لست منه ولا أنا فى العير ولا فى النفير ، وجئت تغالى بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول فى هذه المآزق ، لأنك فى غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجا إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ؛ وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك فى غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجرى إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ؛ والأفراط فى التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبى فى العرب ؛ والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج فى زماننا . ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدلّ كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه فى العيان ، ولا يشول مهما نفخناه فى الميزان

وأكتفى الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمالَ والقسام فى العربى (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمى » الذى جاء اسما على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقى هو الجمال المعنوى ، لا الجمال الصورى ، الذى هو جمال زائل ؛ فالجمال المعنوى هو الذى ورد به الحديث الشريف : إن الله جميل ويحب الجمال . وعلى هذا يمكننى أن أقول إنه لم يُعط أحد شطر الجمال المعنوى الذى يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى ، الذى كان فى هذه الحقبة الأخيرة

جمال دمشق ، وجمال القطر الشامى بأسره ، فى غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ؛ لكان ذلك كافياً فى اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . . الخ)

بأبى أنت وأمى يا شكيب ! هل هذا بيانك الذى عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك فى كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق فى المعانى والمبانى ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يتشدو فى الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأيى فيه ، ولعلك تذكر أنى كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، فى خاطر الحاج إلى أسمى مطاف » وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من إجهاد الفكر ؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع فى بعض المقامات والغلو فى تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا فى كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأييده

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً فى شىء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه اسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبى أسحاق الصابى الذى أفسد اللغة على علو مكانته فى الأدب بما سجع ورصع ؟ وأظنك موافقى على رأيى فى أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذى قضى بقوة حكومته على استعمال السجع فى الصحف والرسائل الرسمية ، فعدّ عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ؛ ولولا عمله ما دخلت اللغة فى هذا الأسلوب الممتع الذى نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما أظنك تنكر علىّ أن وصف أبى حيان التوحيدى فى القرن الرابع ، وابن خلدون فى القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابى والصاحب بن عباد وأبى بكر الخوارزمى والقاضى الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . وأظنك موافقى أن فى قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه فى طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن فى قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفى علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول فى مقدمة الديوان الذى نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، فى الجزل الرقيق » ما قلته فى فاتحته : « . . . الذى لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره فى الأقطار ؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها ؛ والجواد عينه تغنى عن الفرار . ولعمرى لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت فى تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو فى الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ؛ كما أنى لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو فى نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيما ، وديواناً تتأرج أرجاؤه ندًّا ولطيما ، لما خفى أمره على ذوى الوجدان ، ولا تمامى عن سبقه أحد ممن له عينان . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « . . . الذى لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ؛ ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو فى الواقع دون ما أصف لما اغنيته فتيلاً ؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو فى نفسه دراً نظيما ، لما خفى أمره . . » أليس هذا الايجاز أوقع فى النفس ، وأجمل فى أداء المعنى ، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنُفهم ، لا لنُسجع ونُبهم . وبعد فمالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين فى معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا فى أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم فى أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع .

محمد كرد على